

رسائل بولس في السجن

بولس وأهل فيلبي

الدرس
الخامس



خدمات الألفية

الثالثة

تعليمٌ كتابيٌّ. للعالم. مجاناً.

كافة حقوق الطبع والنشر محفوظة. ولا يجوز نسخ أي جزء من هذا المنشور بأي شكل أو وسيلة بغاية الربح، باستثناء اقتباسات مختصرة بغرض المراجعة، أو التعليق، أو البحث العلمي، دون إذن خطي من الناشر، خدمات الألفية الثالثة على العنوان البريدي:

Third Millennium Ministries, Inc., 316 Live Oaks Blvd., Casselberry, Florida 32707.

اقتباسات النصوص الكتابية مأخوذة من ترجمة البستاني - فاندايك، إلا إذا أُشير إلى غير ذلك.

حول خدمات الألفية الثالثة

تأسست خدمات الألفية الثالثة سنة ١٩٩٧، وهي مؤسسة مسيحية لا تهدف للربح ومكرّسة لتقديم تعليمًا كتابيًا. للعالم مجاناً. تلبيةً لحاجة العالم المتزايدة لتدريب مسيحيّ للقادة يستند إلى الكتاب المقدّس، ننتج منهاجاً لاهوتياً سهل الاستخدام، مدعوماً بالتبرعات، وذو وسائل إعلامية متعددة في خمس لغات رئيسية وهي (الإنجليزية، والإسبانية، والروسية، والماندرين الصينية، والعربية). ونوزّع هذا المنهاج مجاناً لمن هم في أشد الحاجة إليه، في المقام الأول على القادة المسيحيين الذين لا يستطيعون الحصول على الدراسة التقليدية، أو ليس بمقدورهم تحمّل نفقاتها. تُكتب كل الدروس وتُصمّم وتُنتج في مؤسستنا، وتتشابه في الأسلوب والنوعية لما تجده على قناة التاريخ (History Channel). لقد برهنت هذه الطريقة الفريدة، والفعّالة من حيث تكلفتها، لتدريب القادة المسيحيين على فاعليتها في كل العالم. وقد ربحنا جائزة تيلي للإنتاج المتميز للفيديو في مجال التعليم واستخدام الرسوم المتحركة. يُستخدم منهاجنا اليوم في ١٥٠ دولة. وتُنتج مواد الألفية الثالثة في شكل اسطوانات مدمجة (DVD) ومطبوعات، وبث على الإنترنت، وعن طريق محطات التلفزيون الفضائية وكذلك البث الإذاعي (الراديو) والتلفزيوني.

للمزيد من المعلومات عن خدمتنا وكيف يمكنك المشاركة نرجو زيارة موقعنا على الإنترنت

<http://arabic.thirdmill.org>

المحتويات

I .I المقدمة

II .II الخلفية

أ. العلاقة

ب. المعاناة في السجن

ج. الأوضاع في فيلبي

١. الاهتمام في بولس

٢. مشاكل الكنيسة

III .III البنية والمحتوى

أ. التحية

ب. الشكر

ج. الصلاة

د. الجزء الرئيسي

١. ثبات بولس

٢. الحض على الثبات

٣. تأكيد الثبات

هـ. التحية الختامية

IV .IV التطبيق المعاصر

أ. طبيعة الثبات

١. تعريف

٢. ضرورة الثبات

٣. يقينية الثبات

ب. الإطار الفكري للثبات

١. التواضع

٢. النفاؤل

٣. الفرح

ج. خدمة الثبات

V .V الخاتمة

رسائل بولس في السجن

الدرس الخامس

بولس وأهل فيلبي

المقدمة

عندما يواجه الجنود حالة عدم اليقين في الحرب، غالباً ما تتحول أفكارهم إلى فكرة الموت. فيبدئون بالبحث عن طريق للعثور على الراحة، لأنفسهم ولمن يحبونهم في ديارهم. وغالباً ما يقومون بكتابة رسائل شكر ونصح، يحثون فيها أحببتهم على التحلي بالشجاعة وعلى العيش بطرقٍ تتيلهم الشرف.

تشبه رسالة بولس إلى أهل فيلبي بطرق عديدة رسالة وجهها جندي إلى أهل بيته وهو يتوقع الموت الوشيك. كتب بولس رسالته إلى أهل فيلبي في وقتٍ كان يعاني فيه معاناة كبيرة، في وقتٍ كان يتساءل فيه عن احتمال موته القريب. وقد كتب إلى أناسٍ يحبهم. ولذلك، فإن كلماته الموجهة إلى المؤمنين في فيلبي كانت ثقيلة إلا أنها كانت تظهر الاهتمام؛ حزينه ولكن معزية؛ تحمل التقدير غير أنها تحمل في طياتها حلاوة تشوبها المرارة. من منظور بولس الرسول، فإن هذه الكلمات كان يمكن أن تكون كلمات النصح الأخيرة وعبارات الشكر النابع من القلب الموجهة لأصدقائه الأوفياء.

هذا هو الدرس الخامس في سلسلتنا "رسائل بولس في السجن". وقد عنواننا هذا الدرس "بولس وأهل فيلبي" لأننا سوف نتفحص رسالة بولس إلى كنيسة فيلبي. في هذه الرسالة، كتب بولس لبيث الشجاعة في قلوب أهل فيلبي الذين كانوا يشعرون بالقلق للعذاب الذي كان بولس يعانيه. وبما أنه كان يتوقع احتمال موته الوشيك، فقد كتب رسالة رجاء وتشجيع لأجل أوقات الاضطهاد والشدة التي كان يواجهها هو وأهل فيلبي.

سوف نقسم دراستنا لبولس وأهل فيلبي إلى ثلاثة أجزاء. أولاً، سوف نستعرض خلفية رسالته إلى أهل فيلبي. ثانياً، سوف ننظر عن كثب إلى بنية ومحتوى الرسالة. وثالثاً، سوف نستكشف التطبيق العصري لهذه الرسالة. دعونا نبدأ بالنظر إلى خلفية رسالة بولس إلى أهل فيلبي.

الخلفية

كما سبق وأن ذكرنا في هذه السلسلة، فإنه من الأهمية بمكان معرفة بعض الأمور حول ظروف بولس، وحول أولئك الذين وجه رسالته إليهم. إن معرفة هذه التفاصيل تساعدنا في اتخاذ

الوجهة الصحيحة عند تناولنا رسالة بولس، وفي فهمها كما أراد لنا بولس أن نفهمها. ولهذا، عند مقارنتنا لرسالة بولس إلى أهل فيليبي فإنه ممّا يساعدنا أن نطرح أسئلة مثل: من هم أهل فيليبي؟ ما الذي كان يجري من أمور في حياتهم وفي حياة بولس؟ ولماذا كتب بولس إليهم؟ إن الإجابة على أسئلة مثل هذه ستساعدنا في فهم تعليم بولس الموثوق في هذه الرسالة، وفي تطبيقه على حياتنا.

أثناء بحثنا في خلفية رسالة بولس إلى أهل فيليبي، سوف نركز انتباهنا على مسائل ثلاث. أولاً، سوف ننظر ملياً في علاقة بولس بأهل فيليبي. ثانياً، سنورد بعض التفاصيل عن معاناة بولس في السجن. وثالثاً، سوف نستطلع الأوضاع في فيليبي في الوقت الذي كتب بولس رسالته إليهم. دعونا نبدأ بالنظر إلى علاقة بولس الرسول بكنيسة فيليبي.

العلاقة

كانت فيليبي مدينة هامة في إقليم مقدونية الروماني، وهي منطقة تقع الآن في اليونان. كانت تمتد على طول طريق Via Egnatia، وهو الطريق الرئيسي الذي كان يربط مدينة روما بالأقاليم الشرقية للإمبراطورية. وكان لها وضع خاص ممّيز مع روما، بحيث أنه كان لها الحقوق نفسها كمستعمرة رومانية في إيطاليا، وكان مواطنوها يحملون الجنسية الرومانية.

زرع بولس الكنيسة في فيليبي خلال رحلته التبشيرية الثانية، على الأرجح حوالي عام ٤٩ أو ٥٠ بعد الميلاد. وقبل وصوله إلى فيليبي كان يخدم في آسيا. ولكن في ذلك الحين ظهر له في الرؤيا رجل يروج أن يأتي ببشارة الإنجيل إلى مقدونية. وكاستجابة لهذه الرؤيا، أبحر بولس إلى مقدونية، ونزل في نيابوليس، ولكنه غادرها بسرعة متجهاً إلى مدينة فيليبي، التي تقع على بعد حوالي ١٠ أميال شمال غرب نيابوليس.

إن العديد من أنشطة بولس في فيليبي مدّون في سفر أعمال الرسل ١٢: ١٦-٤٠. على سبيل المثال، في مدينة فيليبي أعتنق أول شخص في أوروبا الديانة المسيحية على يد بولس الرسول، وهذا الشخص هو ليديا التي كانت تعمل بالتجارة. وفي فيليبي كذلك سجن لقيامه بطرد الروح الشريرة من جارية. وهناك أيضاً قام سجان فيليبي الشهير بإعلان إيمانه بالمسيح لتأثره الشديد بالتعاطف الذي أبداه بولس له.

كانت خدمة بولس في فيليبي ناجحة جداً إلى درجة أنه حتى بعد مغادرته المدينة، قام المؤمنون في فيليبي بدعمه وذلك بإرسال الهبات النقدية في أوقاتٍ مختلفة عندما كان بحاجة إلى

عون مالي. فلنستمع إلى ما كتبه بولس في رسالته إلى فيلبي ٤: ١٥-١٦، عن كرمهم:

لَمَّا خَرَجْتُ مِنْ مَكْدُونِيَّةَ، لَمْ تُشَارِكْنِي كَنِيسَةً وَاحِدَةً فِي حِسَابِ الْعَطَاءِ وَالْأَخْذِ إِلَّا
أَنْتُمْ وَحَدُكُمْ. فَإِنَّكُمْ فِي تَسَالُونِيكِي أَيْضًا أَرْسَلْتُمْ إِلَيَّ مَرَّةً وَمَرَّتَيْنِ لِحَاجَتِي. (فيلبي
٤: ١٥-١٦)

أحب أعضاء كنيسة فيلبي بولس، وكانوا يمدونه بانتظام بالهبات المالية. وبحسب الرسالة إلى فيلبي ٤: ١٠ و ١٨، أرسل أهل فيلبي أيضاً إلى بولس هدية في وقت قريب من كتابة رسالته إليهم. فلنستمع إلى كلمات بولس في هذه الرسالة:

لَأَنَّكُمْ الْآنَ قَدْ أَزْهَرَ أَيْضًا مَرَّةً اعْتِنَاؤُكُمْ بِي الَّذِي كُنْتُمْ تَعْتَنُونَهُ، وَلَكِنْ لَمْ تَكُنْ لَكُمْ
فُرْصَةٌ ... قَدْ امْتَلَأْتُ إِذْ قَبِلْتُ مِنْ أَبَفْرُودِسَسِ الْأَشْيَاءِ الَّتِي مِنْ عِنْدِكُمْ ... (فيلبي
٤: ١٠ و ١٨)

مع أنه كان هناك بعض المؤمنين في فيلبي الذين يبدو أنهم كانوا يتمتعون بالأمان المادي، فإن الكنيسة ككل كانت فقيرة إلى درجة استثنائية، ولهذا لم يكن باستطاعتهم دائماً مساعدة بولس مالياً. ولكنهم كانوا يعطونه بسخاء عندما كانت تسنح لهم الفرصة. وتامماً كما أحب أهل فيلبي بولس، حمل لهم هو أيضاً مشاعر مودة قوية. أحبهم لأجل التزامهم بالرب، ولأجل الطريقة التي كانوا فيها شركاء له في خدمة الإنجيل. لقد كانوا أصدقاء له مقرّبين، أناساً كان يتمتع برفقتهم ويفتقد حضورهم. فلنستمع إلى طريقة مخاطبته لهم في فيلبي ١: ٤-٨:

دَائِمًا فِي كُلِّ أَدْعِيَتِي، مُقَدِّمًا الطَّلِبَةَ لِأَجْلِ جَمِيعِكُمْ بِفَرَحٍ، لِسَبَبِ مُشَارِكَتِكُمْ فِي
الْإِنْجِيلِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ إِلَى الْآنَ.... لِأَنِّي حَافِظُكُمْ فِي قَلْبِي، ... أَشْتَاقُ إِلَى جَمِيعِكُمْ
فِي أَحْشَاءِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ. (فيلبي ١: ٤-٥، ٧-٨)

في فيلبي ٢: ١٢؛ ٤: ١، أشار بولس في الواقع إلى أهل فيلبي بصفتهم "أصدقائه الأعماء"، مستخدماً الكلمة اليونانية "Agapētos". وهو التعبير الذي يستعمله بولس عادة لوصف

المقربين من الذين يخدمون معه وأصدقائه الأحياء، مثل تيخوس، أبفراس، فليمون، انسيموس، ولوقا. بدا أن محبة بولس لكنيسة فيلبي كانت أكثر خصوصية وتحديداً من محبته للعديد من الكنائس الأخرى، ولم يكن يُعبر عنها بمشاعر الانتماء والألفة فحسب، بل بصداقة متأججة ومستمرة أيضاً. لا ينبغي أن يكون هذا مدعاةً للدهشة. فبعد كل شيء، ليس من الصعب تصور وجود رابط قوي بين بولس وليديا، مضيفته؛ أو بين بولس والسجان، الذي أعطى الخلاص لحياته وربما حتى بين بولس والجارية التي أنقذها من تسلط إبليس. إن كل ما مرَّ من أحداث دفع بولس إلى محبة المؤمنين في فيلبي. وكانوا يبادلونه الشعور نفسه.

الآن وقد رأينا الاهتمام والرعاية والصداقة الداعمة بين بولس وأهل فيلبي، يجب أن ننقل إلى تفاصيل معاناة الرسول في السجن. ما هي المعاناة التي كان بولس يحتملها في الوقت الذي كتب فيه رسالته إلى أهل فيلبي؟

المعاناة في السجن

على مدى خدمته الطويلة، غالباً ما تألم بولس وتعذب كثيراً. كان يتعرّض للجلد باستمرار، وللضرب بالسياط، ولمطاردة القتلة. وقد سجن مرات عدّة، وفي إحدى المرات رُجم بالحجارة وتُرك على اعتقاد أنه ميت. ولم يكن يتحمل دائماً هذه المعاناة. أحياناً كان يصاب بالإحباط وحتى بالقنوط. على سبيل المثال، خلال رحلته التبشيرية الثالثة، كتب هذه الكلمات في ٢ كورنثوس ١: ٨:

فَإِنَّا لَا نُرِيدُ أَنْ تَجْهَلُوا أَيُّهَا الإِخْوَةُ مِنْ جِهَةِ ضَيْقِنَا الَّتِي أَصَابَتْنَا فِي أَسْيَاءِ، أَنَّنَا
تَتَقَلَّنَا جِدًّا فَوْقَ الطَّاقَةِ، حَتَّى آيَسْنَا مِنَ الْحَيَاةِ أَيْضًا. (٢ كورنثوس ١: ٨)

يصف بولس هنا شعوره بالهزيمة، وبالحسارة المؤقتة للرجاء وذلك بسبب الأوضاع والظروف الرهيبة التي كان يعاني منها. عرف بولس أن الحياة ليست أبداً بلا رجاء حقاً، وعرف أيضاً أن الله قادر على إنقاذنا من أي مكروه. ولكنه كان كائناً بشرياً أيضاً؛ وكانت لديه مواطن ضعفٍ مثلنا تماماً. والحقيقة أن معرفة سلطان الله والاتكال عليه في بعض الأحيان لا يكفي ليبعد عنّا اليأس. حتى بولس كان في صراع. حتى بولس أراد الاستسلام. بولس حتى شعر بأن الله قد تخلى عنه.

حين نقرأ تفاصيل رسالته إلى أهل فيلبي، يبدو أنه أنه لربما كانت تغالبه المشاعر نفسها في الوقت الذي كتب فيه إلى هذه الكنيسة التي أحبها إلى حدّ كبير. لقد جعله لاهوته راسخاً في الحقيقة،

وشجعه على الإيمان بأن الله كان يعمل للخير، حتى من خلال الألم والشدة. ولكن قلب بولس كان ما يزال مُثَقلاً، وحزنه كان عميقاً.

في رسالته إلى أهل فيلبي، لم يكشف بولس عن كل الشدائد التي كانت تثقل عليه. ولكنه تكلم عن بعضها، وكشف عن شدة وقع هذه الشدائد المجتمعة على حالته النفسية. على سبيل المثال، تكلم مراراً عن الموت وكأنه راحة له مرحباً فيها من الألم والعذاب. مثال على ذلك، كتب في فيلبي ٣ : ١٠ هذه الكلمات:

لَأَعْرِفَهُ، وَقُوَّةَ قِيَامَتِهِ، وَشَرَكَةَ آلامِهِ، مُتَشَبِّهًا بِمَوْتِهِ. (فيلبي ٣ : ١٠)

يكشف بولس في هذه الآية عن أن معاناته الحاضرة كانت من الشدة إلى درجة أن يرى الآجاء له بالخلص منها سوى الموت. وقد رأى أن معاناته الشديدة الراهنة هي السبيل إلى موته. وفي فيلبي ١ : ٢٠، يشرح بولس وجهة نظره على النحو التالي:

حَسَبَ انْتِظَارِي وَرَجَائِي أَنِّي لَا أُخْزَى فِي شَيْءٍ، بَلْ بِكُلِّ مُجَاهَرَةٍ كَمَا فِي كُلِّ حِينٍ،
كَذَلِكَ الْآنَ، يَتَعَزَّمُ الْمَسِيحُ فِي جَسَدِي، سِوَاءَ كَأَن بَحْيَاةٍ أَمْ بِمَوْتٍ. (فيلبي ١ :
٢٠)

خانت الشجاعة بولس عند هذه المرحلة، ولكنه كان يأمل في أن يستعيدتها قبل أن يُمتحن. لقد كان اهتمامه كله منصباً على إعطاء المجد للمسيح - سواء كان ذلك بالصمود وتحمل الاختبار بطريقة مشرفة، أو بالموت بكرامة وتصميم، دون أن يتخلى عن شهادة إيمانه. وقد عبّر بولس مباشرة بعد هذا عن رغبته في الموت بهذه الكلمات في فيلبي ١ : ٢١-٢٣:

لَأَنَّ لِي الْحَيَاةَ هِيَ الْمَسِيحُ وَالْمَوْتُ هُوَ رِبْحٌ. وَلَكِنْ إِنْ كَانَتِ الْحَيَاةُ فِي الْجَسَدِ هِيَ
لِي ثَمْرٌ عَمَلِي، ... فَأَنِّي مَحْضُورٌ مِنَ الْاِثْنَيْنِ: لِي اشْتِهَاءٌ أَنْ أَنْطَلِقَ وَأَكُونَ مَعَ
الْمَسِيحِ، ذَلِكَ أَفْضَلُ جِدًّا. (فيلبي ١ : ٢١-٢٣)

في الوقت الذي كتب فيه هذا، كان بولس راغباً في الموت. ولكنه كان عادةً يريد أن يحيا، وأن يكرز، وأن يحمل بشارة الإنجيل إلى أماكن جديدة وأناسٍ جدد، وأن يأتي بالخلص للعالم.

في ظل ظروف طبيعية، على المؤمن المسيحي ألا يرغب بالموت. نعم، لأنه عند موتنا فسوف نكون مع الرب، ويجب أن نتطلع بشوقٍ إلى هذا، ولكن ليس إلى درجة أن نتقبل الموت وكأنه صديق. لقد خُلِقنا للحياة؛ وتعلمنا الأسفار المقدسة أن الموت هو لعنة. بولس بنفسه دعا الموت "عدواً" في ١ كورنثوس ١٥: ٢٦. ولكن عند هذه المرحلة في حياة بولس، كانت الظروف التي يمر بها شديدة الوطأة بحيث رجحت كفة فوائد كونه مع المسيح على رغبته في الاستمرار في الخدمة، وعلى كراهيته للموت نفسه أيضاً.

ولكن بولس لا يكتفي فقط بالإشارة إلى حالته النفسية المضطربة من خلال رغبته في الموت، بل هو يعلن أيضاً ذلك بوضوح في مواضيع عدة. مثال على ذلك، في فيلبي ٢: ٢٧-٢٨، يتكلم عن تعافي أبفروتس من المرض مستخدماً هذه العبارات:

[أبفروتس] مَرَضَ قَرِيبًا مِنَ الْمَوْتِ، لَكِنَّ اللَّهَ رَحِمَهُ. وَلَيْسَ إِيَّاهُ وَحْدَهُ بَلَىٰ إِيَّايَ
أَيْضًا لِنَلَّا يَكُونُ لِي حُزْنٌ عَلَىٰ حُزْنٍ. فَأَرْسَلْتُهُ إِلَيْكُمْ بِأَوْفَرِ سُرْعَةٍ، حَتَّىٰ إِذَا رَأَيْتُمُوهُ
تَفْرَحُونَ أَيْضًا وَأَكُونُ أَنَا أَقَلَّ حُزْنًا. (فيلبي ٢: ٢٧-٢٨)

كان موت ابفروتس كفيلاً بأن يزيد حزناً على الحزن الذي كان يشعر به بولس. ومع أن عودة أبفروتس إلى فيلبي كانت سنقلاً من قلق بولس ولكنها ما كانت لتزيله. ربما كان أفضل تفسير لحزن وقلق بولس، ولما قاله بخصوص الموت، هو أن حياته في هذه المرحلة كانت معرضة لخطر حقيقي. وكما رأينا في درس سابق، فلربما قد قام بكتابة هذه الرسالة من روما أو من قيصرية بحرية. إذ كان قد كتب من روما، فهذا يعني أنه كان يتوقع صدور حكم قيصر عليه بالموت. وإذا كان قد كتب من قيصرية بحرية، فلربما أنه كان يشعر بالقلق بخصوص ما يخططه اليهود لقتله. ولكن أيما كان التهديد الوشيك الحدوث، فقد بدا أن بولس كان يفكر ملياً في الاحتمال الجدّي لموته الوشيك.

على سبيل المثال، في فيلبي ١: ٢٠، كتب بولس، "الآن يتعظم المسيح في جسدي سواءً كان ذلك بحياةٍ أو بموتٍ". وفي ١: ٢٠، أشار إلى أنه ربما كان لديه خيار الموت: "وَلَكِنْ إِنْ كَانَتْ الْحَيَاةُ فِي الْجَسَدِ هِيَ لِي ثَمْرٌ عَمَلِي، فَمَاذَا أَحْتَارُ؟" وفي ٢: ١٧، يتكلم بولس عن احتمال انه كان "أَنْسَكِبُ أَيْضًا عَلَىٰ دَيْبِحَةٍ...". وفي ٣: ١٠، يشير إلى أن مشاركته الحالية لآلام المسيح يمكن أن تقود بولس إلى أن متسبهاً (بالمسيح) بموته.

ولكن بولس لم يكن مقتنعاً تماماً بأنه سوف يموت. في مكان آخر من هذه الرسالة، عبّر

عن أملة في أنه سيحيا. مثلاً، في فيلبي ١: ٢٥، كتب ما يلي: "أَعْلَمُ أَنِّي أَمْكُثُ وَأَبْقَى مَعَ جَمِيعِكُمْ". مشيراً إلى توقعه بأنه سوف يعيش لكي يتابع خدمته لأهل فيلبي.

بولس لم يكن متأكداً تماماً ممّا سيحدث له. من ناحية، عرف أن موته هو احتمال حقيقي، ولهذا حاول أن يحضّر أصدقاءه في فيلبي للأسوأ. ومن ناحية أخرى، كان لديه بعض الأمل في أنه سيعيش، ولهذا، حثهم على أن يأملوا الأفضل. ولكن مهما كان ما يحمله المستقبل له، فقد كان يعاني معاناة شديدة في الوقت الذي كتب فيه رسالته إليهم، بحيث أنه كان في صراع مع حزنه ومخاوفه.

بعد أن نظرنا إلى علاقة بولس بأهل فيلبي ومعاناته في السجن، علينا الآن أن نستطلع الأوضاع التي كانت قائمة في فيلبي في الفترة التي كتب فيها بولس رسالته إليهم. ما هي الظروف التي كانوا يواجهونها والتي تطلبت اهتمام بولس وتوجيه كلمات النصح والتحذير لهم؟

الأوضاع في فيلبي

تناول بولس في رسالته أوضاعاً عدة في كنيسة فيلبي، ولكننا سوف نركّز على مسألتين فقط: اهتمام كنيسة فيلبي في بولس؛ والمشاكل الداخلية والخارجية التي واجهت الكنيسة في فيلبي. دعونا نبدأ بالإشارة إلى اهتمام أهل فيلبي في بولس.

الاهتمام في بولس

كانت ثمة علاقة محبة قوية تجمع ما بين بولس وكنيسة فيلبي بأجمعها. وحين سماعهم نبأ معاناته في السجن انتابهم الجزع والقلق بشأنه. ولهذا، ما أن تمكنوا من ذلك، عبّروا عن اهتمامهم بإرسال هدية تفي باحتياجات بولس الدنيوية، وكذلك سارعوا إلى إرسال أبفروتس لئسلم الهدية إلى بولس وليخدمه في السجن. وقد ذكر بولس هذه الهدية في فيلبي ٤: ١٨، شاكرًا إياهم بهذه العبارات:

وَلَكِنِّي قَدْ اسْتَوْفَيْتُ كُلَّ شَيْءٍ وَاسْتَفْضَلْتُ. قَدْ امْتَلَأْتُ إِذْ قَبِلْتُ مِنْ أَبْفَرُودِسُ
الْأَشْيَاءَ الَّتِي مِنْ عِنْدِكُمْ، نَسِيمَ رَائِحَةٍ طَيِّبَةٍ، ذَبِيحَةً مَقْبُولَةً مَرْضِيَّةً عِنْدَ اللَّهِ.
(فيلبي ٤: ١٨)

كما سبق وأن ذكرنا، لم يكن أهل فيليبي أثرياء، ولهذا، فإن هذه الهدية هي بمثابة تضحية كبيرة من جانبهم. ولكنهم أرسلوها بحماس كبير لأنهم كانوا يهتمون اهتماماً بالغاً براحة بولس وحسن حاله. وكما نقرأ في فيليبي ٢: ٢٥، أرسلت كنيسة فيليبي ابفروتس أيضاً ليقدم بولس في السجن. فلنستمع إلى كلمات بولس هنا:

وَلَكِنِّي حَسِبْتُ مِنَ اللَّازِمِ أَنْ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ أَبْفِرُودِتْسَ ... وَرَسُولَكُمْ، وَالْخَادِمَ
لِحَاجَتِي. (فيلبي ٢: ٢٥)

ابفروتس أيضاً سلم بولس، على ما يبدو، تقريراً يعبر عن خوف أهل فيليبي من أن يكون من يضطهد بولس هم جماعة أخرى من المؤمنين، وبأن يكون التهديد بالموت سلط فوق رأسه. وفي رسالته إليهم، أكد بولس أن أهل فيليبي قد فهموا ظروفه تماماً، وعبر عن تقديره لاهتمامهم وعنايتهم. مثال على ذلك، في فيليبي ١: ١٥-١٧، يُقَرُّ بأن بعضاً ممن كانوا يكرزون بالإنجيل ضائقوه. وقد وصف الوضع بهذه العبارات:

أَمَّا قَوْمٌ فَعَنَ حَسَدٍ وَخِصَامٍ يَكْرِزُونَ بِالْمَسِيحِ، ... فَهَوْلَاءَ عَن تَحَرُّبٍ يُنَادُونَ
بِالْمَسِيحِ لَا عَن إِخْلَاصٍ، ظَانِّينَ أَنَّهُمْ يُضِيفُونَ إِلَيَّ وَتُقِي ضِيقًا. (فيلبي ١: ١٥ -
١٧)

في الواقع، إن أحد أسباب شعور بولس بالأسى والحزن هو وجود قلة قليلة فقط من المؤمنين من حوله، بمن فيهم قادة مسيحيين، كرسوا حياتهم بصدق لخدمة الإنجيل. فلنستمع إلى كلماته بهذا المعنى في فيليبي ٢: ٢١:

إِذِ الْجَمِيعُ يَطْلُبُونَ مَا هُوَ لَأَنْفُسِهِمْ لَا مَا هُوَ لِيَسُوعَ الْمَسِيحِ. (فيلبي ٢: ٢١)

بالاختصار، كان أهل فيليبي على حق في شعورهم بالقلق بشأن بولس في هذه المرّة. كانت متاعب بولس شديدة جداً والوسيلة إلى مساندته ضعيفة جداً. ولكن أهل فيليبي لم يكونوا قلقين بشأن واقع معاناة بولس فحسب. كانوا يشعرون أيضاً بالقلق من احتمال موته، سواء كان ذلك عن طريق الاغتيال أو الإعدام. وهذه المخاوف كان لها ما يبررها.

كما رأينا في درسٍ سابق، حاول اليهود قتل بولس أكثر من مرّة، والجريمة التي اتهموه بارتكابها عقوبتها الموت. ولهذا، كرّس أهل فيلبي أنفسهم للصلاة لأجل بولس، يدفعهم إلى ذلك قلقهم العميق بشأنه. وقد شكرهم بولس لأجل صلواتهم في فيلبي ١: ١٩-٢٠ بهذه الكلمات المشجعة:

لَأَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ هَذَا يُوَوِّلُ لِي إِلَى خَلَاصٍ بِطَلْبَتِكُمْ وَمُوَازَرَةِ رُوحِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ،
حَسَبَ انْتِظَارِي وَرَجَائِي ... يَتَعَزَّمُ الْمَسِيحُ فِي جَسَدِي، سَوَاءً كَانَ بِحَيَاةٍ أَمْ بِمَوْتٍ.
(فيلبي ١: ١٩-٢٠)

كان بولس ممتناً لصلوات أهل فيلبي، وقد أكّد لهم أنه يرحّب بالموت كشكلٍ من أشكال الخلاص ممّا يعانيه. بعد أن رأينا قلق واهتمام أهل فيلبي بحسن حال بولس، علينا الآن أن ننظر إلى بعض المشاكل التي كانت موجودة في الكنيسة هناك، والمستقاة من مصادر مختلفة.

مشاكل الكنيسة

واجهت كنيسة فيلبي ثلاثة أنواع من المشاكل على الأقل: أولاً، يبدو أنهم قد واجهوا اضطهاد أولئك الذين هم من خارج الكنيسة. ثانياً، لقد كانوا يواجهون خطر احتمال التعليم الزائف الشبيه بذاك الذي تغلغل في الكنائس الأخرى. وثالثاً، كانوا يعانون من النزاعات بين بعضهم بعضاً في الكنيسة. ذكر بولس الاضطهاد الذي كانوا يكابدونه في فيلبي ١: ٢٧-٣٠، بهذه الكلمات:

تَتُبْنُونَ فِي رُوحٍ وَاحِدٍ، مُجَاهِدِينَ مَعًا بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ لِإِيمَانِ الْإِنْجِيلِ، غَيْرَ مُخَوِّفِينَ
بِشَيْءٍ مِنَ الْمُقَاوِمِينَ، ... لِأَنَّهُ قَدْ وُهِبَ لَكُمْ لِأَجْلِ الْمَسِيحِ ... أَنْ تَتَأَلَّمُوا لِأَجْلِهِ.
إِذْ لَكُمْ الْجِهَادُ عَيْنُهُ الَّذِي رَأَيْتُمُوهُ فِيَّ، وَالآنَ تَسْمَعُونَ فِيَّ. (فيلبي ١: ٢٧-٣٠)

لبضع سنين خلت، مباشرةً بعد زرعه الكنيسة في فيلبي، لاقى بولس مقاومة شديدة من قبل يهود مدينة تسالونيكي المكدونية المجاورة. وكما نقرأ في سفر أعمال الرسل ١٧: ٥-١٣، اتّهم أولئك اليهود الغاضبون بولس والمؤمنين الآخرين بخرق القانون الروماني. ممّا أرغم بولس على الفرار من المدينة ليلاً لتجنّب المزيد من الاضطهاد يلحقه به اليهود، وكذلك لتجنب اعتقاله من قبل السلطات

المدنية.

كان هؤلاء اليهود التسالونكيون من اليهود الغيورين المتعصبين بحيث لاحقوا بولس حتى إلى مدينة بيرية. ولهذا فمن المنطقي الاعتقاد أن هؤلاء اليهود عينهم، أو آخرين مثلهم، قد ضايقوا الكنيسة في فيلبي أيضاً، ربما أثاروا الحكومة المحلية ضد الكنيسة كذلك. ولكن مهما كانت طبيعة الاضطهاد في فيلبي، فمن الواضح على الأقل أن الكنيسة كانت تعاني حقاً على يدي غير المؤمنين.

والمشكلة الثانية التي واجهت كنيسة فيلبي كانت خطر انتشار التعليم الزائف. ولكن التعليم الزائف على ما يبدو، لم يكن قد أثر بعمق بعد في كنيسة فيلبي، بما أن بولس لم يتصد له مباشرة. ولكنه أعدّ أهل فيلبي لرفض أي تعليم زائف قد يصل إلى مدينتهم. فلنتأمل ملياً في كلمات بولس حول موضوع الختان في فيلبي ٣: ١-٣:

كِتَابَةُ هَذِهِ الْأُمُورِ إِلَيْكُمْ لَيْسَتْ عَلَيَّ ثَقِيلَةً، وَأَمَّا لَكُمْ فَهِيَ مُؤَمَّنَةٌ. أَنْظُرُوا الْكِلَابَ.
انظُرُوا فَعَلَةَ الشَّرِّ. انظُرُوا الْقَطْعَ. لَأَنَّا نَحْنُ الْخِتَانُ... (فيلبي ٣: ١-٣)

كان بولس قلق على أن المعلمين الكذبة الذين دافعوا عن سوء استخدام الختان من الممكن بان يمشكوا كنيسة فيلبي. وقد أدان بولس كذلك التعليم الزائف في فيلبي ٣: ١٨-١٩:

وَهُمْ أَعْدَاءُ صَلِيبِ الْمَسِيحِ، الَّذِينَ نَهَيْتُهُمُ الْهَلَاكُ، الَّذِينَ إِلَهُهُمْ بَطْنُهُمْ وَمَجْدُهُمْ
فِي خَزَائِمِهِمْ، الَّذِينَ يَفْتَكِرُونَ فِي الْأَرْضِيَّاتِ. (فيلبي ٣: ١٨-١٩)

إن كلام بولس هذا يمكن أن يصف عدداً غير محدد من التعاليم الزائفة، بما فيها أمور مثل الإعراض عن تناول الطعام، والاستخدام غير الصحيح لقوانين تحريم الأطعمة في العهد القديم. قد تكون هذه الأنواع من التعاليم الزائفة قد جاءت من مصدرين. من جهة، يمكن أن يكون بولس قد شعر بالقلق بخصوص الهرطقات التي هددت الكنيسة في كولوسي ومدن أخرى في وادي ليكوس. وكما سبق وأن ذكرنا في درس سابق، جمعت هذه التعاليم الزائفة التعاليم المسيحية وعناصر من الفلسفة اليونانية، والزهد، وتحريف الشريعة اليهودية. مثلاً، ربط بولس على وجه التعيين، بين هذا التعليم الزائف وبين إساءة استعمال الختان، في كولوسي ٢: ١١-١٢ وكذلك الامتناع عن الطعام في كولوسي ٢: ٢٠-٢٣.

من جهة أخرى، قد يكون القلق قد انتاب بولس بخصوص المسيحيين المتهودين من أورشليم، مثل أولئك الذين كتب ضدهم منذ زمن بعيد في غلاطية ٢: ١١-٢١، ومنذ عهد أقرب في رومية ٤: ٩-١٧. من المحتمل أنه اصطدم بهم خلال رحلته إلى أورشليم التي أدت إلى سجنيه الحالي. مثلهم مثل المعلمين الكذبة في وادي ليكوس، أساء المتهودون أيضاً استخدام الختان والامتناع عن الأطعمة، مرغمين المؤمنين غير اليهود على الالتزام بأشكال قديمة من الموالاتة لشريعة العهد القديم.

وأخيراً، بالإضافة إلى المشقات المتأتية من الاضطهاد والتعليم الزائف، عانى أهل فيلبي من النزاعات بين المؤمنين داخل الكنيسة. تناول بولس هذه النزاعات بعبارات عامة في فيلبي ٢: ١-٣ حاضاً إياهم بالقول:

فَإِنْ كَانَ وَعَظَّمَا فِي الْمَسِيحِ. إِنْ كَانَتْ تَسْلِيَةً مَا لِلْمَحَبَّةِ. إِنْ كَانَتْ شَرِكَةً مَا فِي
الرُّوحِ. إِنْ كَانَتْ أَحْشَاءَ وَرَأْفَةً، ... حَتَّى تَفْتَكِرُوا فِكْرًا وَاحِدًا وَلَكُمْ مَحَبَّةً وَاحِدَةً
بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ، مُفْتَكِرِينَ شَيْئًا وَاحِدًا، لَا شَيْئًا يَتَحَزَّبُ أَوْ بَعْجِبُ، بَلْ يَتَوَاضَعُ،
حَاسِبِينَ بَعْضُكُمْ الْبَعْضَ أَفْضَلَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ. (فيلبي ٢: ١-٣)

وفي فيلبي ٤: ٢، حث المرأتين اللتين كانتا على ما يبدو غير قادرتين على إيجاد حلّ لخلافاتهن، مسطراً هذه الكلمات:

أَطْلُبُ إِلَى أُوْدِيَّةٍ وَأَطْلُبُ إِلَى سِنْتِيحِي أَنْ تَفْتَكِرَا فِكْرًا وَاحِدًا فِي الرَّبِّ. (فيلبي ٤: ٢)

لم تستدعي الخلافات الداخلية في فيلبي التأديب القاسي. ومع ذلك فقد كانت عامل تفرقة كما كانت عقيدة وآثمة. إن الخلافات أو النزاعات البعيدة عن المحبة والتي تركز على الذات، غير مقبولة في الكنيسة. ولهذا، استنفذ بولس حيزاً كبيراً لإبراز أهمية الوحدة والمحبة في الكنيسة. الآن وبعد أن نظرنا إلى خلفية رسالة بولس إلى أهل فيلبي، بتنا على استعداد للنظر في موضوعنا الثاني: بنية ومحتوى رسالة بولس القانونية والمعتمدة إلى كنيسة فيلبي.

البنية والمحتوى

بينما نمنع النظر في بنية ومحتوى رسالة بولس إلى أهل فيلبي، سوف نقوم بتجزأتها إلى خمسة أقسام رئيسية: التحية في ١: ١-٢؛ وتقديم الشكر في ١: ٣-٨؛ ثم صلاة بولس لأجل أهل فيلبي في ١: ٩-١١؛ ويلي ذلك الجزء الرئيسي من الرسالة في ١: ١٢-٤: ٢٠؛ ثم التحيات الختامية في ٤: ٢١-٢٣. دعونا نبدأ بالتحية في الآيتين ١-٢.

التحية

التحية في ١: ١-٢ تقدم لنا بولس بصفته الكاتب الرئيسي للرسالة، وتتصّل على أن تيموثاوس شارك أيضاً بكتابة الرسالة. وفي هذه الرسالة كلها، أشار بولس إلى نفسه بشكل مستمر مستخدماً صيغة المفرد وعبارات مثل "أنا" وليس "نحن". وفي فيلبي ٢: ١٩ و٢٣، أشار إلى تيموثاوس مستخدماً ضمير الغائب.

إن التحية في فيلبي هي بشكل ما مختلفة عن نظيراتها في معظم رسائل بولس الأخرى لأنها لا تذكر رسولية بولس. ويشاركها فقط في هذا التميّز رسالتي بولس إلى أهل تسالونيكي ورسالته إلى فليمون. ولكن الرسائل الثلاث كلها تشير إلى سلطة بولس الرسولية خارج التحية. في فيلبي فقط نجد رسالة بأكملها لم يعر فيها بولس اهتماماً ظاهراً لسلطته الرسولية.

إن هذا لا يعني أن رسالة بولس إلى أهل فيلبي تقتقد السلطة الرسولية. لا بل هي بالأحرى شهادة أو دليل على علاقته بأهل فيلبي، وعلى تقديرهم الكبير لبولس، وعلى تلهفهم لإرضاء الرب. لم يضطر بولس مرة واحدة أن يذكرهم بمقامه وبسلطته.

ينتقل بولس بعد التحية إلى تقديم الشكر في ١: ٣-٨. هذا الانتقال من تقديم التحية إلى تقديم الشكر هو ملازم بشكل دائم للشكل الذي اتبعه بولس في معظم رسائله القانونية والمعتمدة الأخرى، باستثناء رسالتيه إلى غلاطية وإلى تيطس.

الشكر

الجزء الأول من تقديم الشكر الذي نجده في فيلبي ١: ٣-٦، يمثل إلى حدّ ما النصّ النموذجي للحمد والشكر، وهو يتحدث عن الفرح الذي جلبه أهل فيلبي لبولس، وترقبه لخلصهم

النهائي. ولكن تقديم الشكر الموجود في فيلبي ١: ٧-٨، هو بالأحرى فريد من نوعه من بين صيغ تقديم الشكر التي يستخدمها بولس، حيث أنها تبرز عمق محبته لأهل فيلبي. فلنستمع إلى كلماته:

كَمَا يَحِقُّ لِي أَنْ أَفْتَكِرَ هَذَا مِنْ جِهَةِ جَمِيعِكُمْ، لِأَنِّي حَافِظُكُمْ فِي قَلْبِي، ... فَإِنَّ اللَّهَ شَاهِدٌ لِي كَيْفَ أَشْتَأُقُ إِلَى جَمِيعِكُمْ فِي أَحْشَاءِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ. (فيلبي ١: ٧-٨)

تدل هذه الكلمات على أن علاقة بولس بأهل فيلبي كانت علاقة شخصية عميقة ونابعة من القلب.

الصلاة

بعد تقديم الشكر، رفع بولس صلاةً لأجل أهل فيلبي في ١: ٩-١١. هذه الصلاة هي نوعاً ما قصيرة، ولكنها زاخرة بأقوال تعكس خصوصية الرسالة كلها. صلّى بولس بشكل أساسي، لكي يتمكن أهل فيلبي من التعبير عن محبتهم المسيحية بالعيش بطرقٍ تمجد الله وتكرّمه. أولاً، صلّى لكي يكون لديهم قدرة التمييز الضرورية للحكم على الأمور بشكل صحيح. ثانياً، صلّى لكي تقودهم هذه المقدرّة على التمييز إلى تأدية الأعمال الحسنة، وإلى الثبات في الأيمان والممارسة إلى يوم الدينونة ومجيء المسيح الثاني. أخيراً، صلّى بان يحضروا أهل فيلبي المجد والتسبيح إلى الله من خلال أعمالهم الصالحة وثبات أيمانهم.

انقل بولس بعد صلاته إلى الجزء الرئيسي من رسالته إلى أهل فيلبي والذي نجده في ١: ١٢-٤: ٢٠. وقد تمّ وضع مخططات لهذا الجزء من الرسالة بطرقٍ متنوعة من قبل مفسرين للكتاب المقدس على اختلافهم. ولكن مخططنا في هذا الدرس سيتبع بشكل أساسي الانسياب المنطقي لكلمات التشجيع والتعليمات التي أعطاها بولس لكنيسة فيلبي.

الجزء الرئيسي

عندما كتب بولس رسالته إلى أهل فيلبي، كان يتألم ألماً عظيماً، وكانت حياته في خطر ممّا جعل الضيق والقلق يحرقان به. حتى أنه بإمكاننا أن نقول في وصف حالته على أنه كان يائساً. وانطلاقاً من هذا الإطار الفكري كتب إلى المؤمنين في فيلبي.

عرف بولس أن كلماته إليهم قد تكون الأخيرة. ولهذا، فقد عبّر عن عمق مشاعره نحوهم، جاعلاً إياهم يعرفون مدى محبته الكبيرة لهم، وكم كان ممتناً وشاكراً لصداقتهم وخدمتهم له. وقد قدّم لهم أيضاً كلمات حكمة أخيرة، معلماً إياهم كيفية التعامل مع الشدائد بطرق تكرم الله.

بإبقتنا هذا المنظور الشامل في أذهاننا، نستطيع أن نميّر الترتيب التالي لأفكاره في القسم الرئيسي من هذه الرسالة؛ أولاً، وصف لثبات بولس في السجن، في ١: ١٢-٢٦؛ ثانياً، حضّه لأهل فيلبي على الثبات، في ١: ٢٧-٤؛ وثالثاً، تأكيد بولس على ثبات أهل فيلبي في ٤: ١٠-٢٠. سوف نلقي نظرة عن كثب على كل جزء من هذه الأجزاء، بدءاً بثبات بولس في السجن في ١: ١٢-٢٦.

ثبات بولس

لم يكن ثبات بولس في السجن عائداً إلى إنكاره لمعاناته وألمه، ولا إلى قبوله لهما، بل بإيجاده أسباباً تدعوه للفرح بالرغم من معاناته وعذابه. وقد اغتتم الفرصة ليشرح لهم ويدافع عن فرحه لكي يحث أهل فيلبي على عدم القلق بشأنه. لقد قدّر اهتمامهم به وقلقهم عليه ولكنه لم يكن يرغب في أن يشعروا بالأسى لأجل الظروف التي كان يمرّ بها.

يركز بولس في هذا الجزء من الرسالة على ثلاثة مصادر للفرح الذي وجده في غمرة حزنه: نجاح خدمته الحالية، في الآيات ١٢-١٨؛ رجاءه بخلاص في المستقبل، في الآيات ١٨-٢١؛ وتوقعه أو تطلعه لخدمة في المستقبل، في الآيات ٢٢-٢٦. وقد شرح بولس أن تركيزه على هذه الأمور الحيدة، جعله أكثر قدرة على تحمل مشقاته. مثال على ذلك، في الآية ١٢-١٨ وضّح لهم أنه ولو كان يعاني الألم في السجن، فقد كان سعيداً لأن خدمته مستمرة في الازدهار. فلنستمع إلى ما يقوله في فيلبي ١: ١٦ و١٨:

فَهَوْلَاءِ عَن تَحَرُّبٍ يُنَادُونَ بِالْمَسِيحِ لَا عَن إِخْلَاصٍ، ظَانِّينَ أَنَّهُمْ يُضَيِّفُونَ إِلَيَّ
وَتُفِي ضَيْقًا ... فَمَاذَا؟ غَيْرَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ وَجْهِ سَوَاءٌ كَانَ بَعْلَةً أَمْ بِحَقِّ يُنَادَى
بِالْمَسِيحِ، وَبِهَذَا أَنَا أَفْرَحُ. (فيلبي ١: ١٦ و١٨)

عانى بولس إلى درجة ما من الضيق والإزعاج الذي خلفه له الكارزون الحاقدون. ولكنه رغم الأذى الذي ألحقه به بشكل شخصي، فرح لحقيقة أنهم إنمّا كانوا يكرزون بالإنجيل الحق. وكذلك

وجد بولس فرحاً في رجائه بالخلاص في المستقبل، الذي وصفه في الآيات ١٨-٢١. هذا وقد ركّز على احتمال إطلاق سراحه من السجن. ولكن كما سبق وأن قلنا، كانت آلام بولس من الشدة في ذلك الوقت حتى غدا الموت راحة مرحّب فيها. ولهذا، كان الأمل بأنه سيجد راحة من آلامه، سواء كان بإعلان براءته أم بموته، يبيّن فيه الشجاعة. وقد وصف هذا المنظور في فيلبي ١: ١٨-٢١:

بَلْ سَأَفْرَحُ أَيْضًا. لِأَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ هَذَا يُوَوِّلُ لِي إِلَى خَلَاصٍ ... سَوَاءً كَانَ بِحَيَاةِ أُمِّ
بِمَوْتِ. لِأَنَّ لِي الْحَيَاةَ هِيَ الْمَسِيحُ وَالْمَوْتُ هُوَ رِبْحٌ. (فيلبي ١: ١٨-٢١)

من ناحية، كان التهديد بالموت يكدّر بولس إلى حدّ كبير. ولكن بمعنى آخر، فقد كان قادراً على تجاوز موته ليرى ما وراءه من فرح سيكون له في حضرة المسيح في السماوات. وبتركيزه على الراحة والسماوات، كان بمقدور بولس أن يجد مقداراً من الفرح في غمرة ما يعانیه. وبطريقة مماثلة في فيلبي ١: ٢٢-٢٦، نظر بولس أيضاً إلى إمكانية خدمة أهل فيلبي في المستقبل كمبعث على الأمل. فلنستمع إلى كلماته المشجعة في فيلبي ١: ٢٥-٢٦:

أَنِّي أَمَكْتُ وَأَبْقَى مَعَ جَمِيعِكُمْ لِأَجْلِ تَقَدُّمِكُمْ وَفَرَحِكُمْ فِي الْإِيمَانِ، لِكَيْ يَزِدَّادَ افْتِحَارِكُمْ
فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ فِيَّ. (فيلبي ١: ٢٥-٢٦)

أحبّ المؤمنون في فيلبي بولس، ولهذا، فقد كان ليريحهم أن يسمعوا أنه ما زال يأمل في أن يعيش. وقد أحبهم هو أيضاً ووجد تعزيةً ورضىً في فكرة ازدهارهم في المسيح.

الحض على الثبات

بعد أن استخدم ثباته في الإيمان في السجن لتشجيع أهل فيلبي على عدم القلق بشأنه، ضمّن بولس رسالته جزءاً طويلاً يحضّ فيه أيضاً أهل فيلبي على الثبات في الإيمان، في فيلبي ١: ٢٧-٤: ٩. يوصيهم بولس هنا أن يبقوا على إخلاصهم للمسيح وأن يعيشوا حياة مثالية حتى في وسط ظروفهم البائسة.

سوف نتناول معالجتنا لوعظ بولس المواضيع الرئيسية التالية: أهمية الثبات في الإيمان، في ١: ٢٧-٢: ١٨؛ والمساعدة للثبات في ٢: ١٩-٣٠؛ ومثال بولس في الثبات في

الإيمان، في ٣: ١-١٦؛ وأخيراً تعليماته المتعلقة بتحديات الثبات، في ٣: ١٧-٤: ٩. أولاً، دعونا ننظر إلى ما قاله بولس حول أهمية الثبات في الإيمان وممارسته عملياً. في فيليبي ١: ٢٧-٢٩، أعلم بولس أهل فيليبي أنه سمع عن جهادهم من أجل إيمانهم، وشجّعهم بهذه العبارات:

أَنْكُمْ تَثْبُتُونَ فِي رُوحٍ وَاحِدٍ، مُجَاهِدِينَ مَعًا بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ لِإِيمَانِ الْإِنْجِيلِ، غَيْرِ
مُخَوِّفِينَ بِشَيْءٍ مِنَ الْمُقَاوِمِينَ... لِأَنَّهُ قَدْ وَهَبَ لَكُمْ لِأَجْلِ الْمَسِيحِ... أَنْ تَتَأَلَّمُوا
لِأَجْلِهِ. (فيلبي ١: ٢٧-٢٩)

إن معاناة أهل فيليبي كانت مؤلمة وقاسية، ولكنهم لم يخرجوا عن سيطرة الله. بل بالعكس، خطط الله بذاته وسمح بمعاناتهم كسبيل إلى إعطائهم البركات. ومع ذلك، كان ثباتهم خلال هذه الأوقات الصعبة أمراً حيوياً، بحفاظهم على إيمانهم وعيشهم حياة بارة مستقيمة. وكما رأينا في دروس أخرى، لن تنتهي آلام يسوع حتى مجيئه الثاني. وفي الوقت الحاضر، يكمل آلامه من خلال الكنيسة. لأن المؤمنين هم في اتحاد مع المسيح، عندما نتألم، يتألم يسوع. ومن منظور بولس، لم تكن تلك الآلام سبباً إلى إتمام آلام المسيح المعينة فحسب؛ بل هي وسام شرف أيضاً. ومثله، نقرأ في فيليبي ١: ٢٧-٢٩، أن الله لم يسمح فقط بأن يتألم أهل فيليبي-بل أنه وهب عليهم بهذا الألم. أفرغ بولس فكرته هذه في فيليبي ٢: ٥-٩، حيث كتب هذه الكلمات:

فَلْيَكُنْ فِيكُمْ هَذَا الْفِكْرُ الَّذِي فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ أَيْضًا... وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى
الْمَوْتِ مَوْتِ الصَّلِيبِ. لِذَلِكَ رَفَعَهُ اللَّهُ أَيْضًا، وَأَعْطَاهُ اسْمًا فَوْقَ كُلِّ اسْمٍ. (فيلبي
٢: ٥-٩)

تحمل يسوع آلامه وسوء معاملته طوعاً لفائدة الكنيسة، وكانت مكافأة تضحيته عظيمة إلى درجة لا تقاس. وبالمثل، يجب أن يتحمل المؤمنون باتضاع الألم وسوء المعاملة لفائدة الكنيسة. وعندما نفعل ذلك، فإن مكافأتنا ستكون عظيمة أيضاً. لهذا السبب استطاع بولس كتابة هذه الكلمات في فيليبي ٢: ١٧-١٨:

لِكِنِّي وَإِنْ كُنْتُ أَنْسَكِبُ أَيْضًا عَلَى دَبِيحَةِ إِيمَانِكُمْ وَخِدْمَتِهِ، أُسْرٌ وَأَفْرَحُ مَعَكُمْ
أَجْمَعِينَ. وَبِهَذَا عَيْنِهِ كُونُوا أَنْتُمْ مَسْرُورِينَ أَيْضًا وَأَفْرَحُوا مَعِي. (فيلبي ٢: ١٧-)

(١٨)

لا يريد بولس أن يتحمّل أهل فيلبي الألم المعين لهم فقط، بل هو يريدهم أن يفرحوا في غمرة هذا الألم لأجل البركات التي تنتج عنه. فضلاً عن ذلك، أرادهم أن يفرحوا بالبركات التي ستنتج عن آلامه، تماماً كما فرح هو بالبركات التي فاضت من آلامهم.

شجّع بولس المؤمنين على التركيز على مكافآت الألم لكي تكون لهم المقدرة والشجاعة على الثبات في الإيمان والحياة المقدسة، حتى ولو كان ذلك تحت ظلّ إكراه كبير. إذا لم يستطيعوا التحمّل بعد هذا، فلن يفرحوا بالبركات التي يستطيع الألم أن يوفرها لهم.

بعد أن شدّد على أهمية الثبات، وملهماً إياهم بالبركات، قدّم بولس لأهل فيلبي عوناً عملياً لمساعدتهم على الثبات خلال المشقات التي كانوا يتحملونها، بإرسال خدام لكي يهتموا بهم. عرف بولس أن رسالته ستعلّم أهل فيلبي كيفية التعامل مع الألم والمعاناة. ولكنه أدرك أيضاً أنه من الأسهل كثيراً تحمل المعاناة والألم عندما يكون لدينا يومياً أناس يساعدوننا، ويتألّمون معنا، جنباً إلى جنب. ولهذا، قرّر بولس أن يرسل أصدقاءه أيضاً مع رسالته ليقدموا أهل فيلبي في أوقات شدتهم.

خطّط بولس أولاً لإرسال ابفروتس، الرسول من أهل فيلبي الذي قدّم أصلاً لكي يخدم بولس. من المحتمل أن يكون ابفروتس من سلّم رسالة بولس إلى أهل فيلبي. وكما نعلم من فيلبي ٢: ٢٥-٣٠، كانت الكنيسة في فيلبي قلقة بشأن ابفروتس بسبب مرضه، وكان ابفروتس مهموماً بسبب قلقهم الشديد عليه. ولهذا، أعاد بولس ابفروتس إليهم ليريح أفكارهم وفي الوقت نفسه لكي يخدمهم.

في خطوة تالية، خطّط بولس لإرسال تيموثاوس إلى فيلبي. خلال هذا الوقت، بقي تيموثاوس مع بولس في السجن يخدم الرسول أثناء محنته. ولكن كما نقرأ في فيلبي ٢: ١٩، توقع بولس أن يكون قادراً على إرساله لمساعدة أهل فيلبي في المستقبل القريب.

أخيراً، كان بولس يأمل أن يُطلق سراحه من السجن في نهاية الأمر، وأنه سوف يأتي لكي يخدم أهل فيلبي. وقد عبّر عن هذا التطلّع في فيلبي ٢: ٢٤، حيث كتب العبارات:

وَأْتِقُ بِالرَّبِّ أَنِّي أَنَا أَيْضًا سَأَتِي إِلَيْكُمْ سَرِيعًا. (فيلبي ٢: ٢٤)

الكلمة اليونانية "pepoitha" المترجمة هنا "واثق"، على الأغلب انها تؤدي المعنى المطلوب أكثر من كلمة "مقتنع". كان بولس يأمل بإطلاق سراحه، ولكنه لم يكن متأكداً من ذلك.

في جميع الأحوال، أدرك بولس أن تعاطف الكائنات البشرية سيكون ذا قيمة قصوى بالنسبة لكنيسة فيلبي في جهادها وهي تترجح تحت وطأة الشدائد والمحن. ولهذا، وضع جدولاً زمنياً لمدهم بانتظام بخدام مؤهلين ومحبيين.

في الجزء التالي من الوعظ الذي نجده في فيلبي ٣: ١-١٦، يقدم بولس نفسه كمثال ايجابي على الثبات في الإيمان، فيما يتعلق بكل من إطاره الفكري وسلوكه على السواء. بشكل خاص، بولس قد شرح أنه عندما آمن بالمسيح، كفَّ عن الاعتماد على المقاييس الأرضية ليكسب رضا وبركة الله وبدأ بالاتكال على المسيح وحده. ولكن لم يكن مرد هذا فشله في أن يكون على مستوى المقاييس الأرضية. على نقيض ذلك، فإن بولس بالمقاييس الأرضية كان يحب أن يكون الأرفع بين الذين نالوا الرضا لدى الله. فلنستمع إلى وصف لمؤهلاته في فيلبي ٣: ٦-٤:

إِنْ ظَنَّ وَاحِدٌ آخَرَ أَنْ يَتَّكِلَ عَلَى الْجَسَدِ فَأَنَا بِالْأُولَى. مِنْ جِهَةِ الْخِتَانِ مَخْتُونٌ فِي
الْيَوْمِ الثَّامِنِ، مِنْ جِنْسِ إِسْرَائِيلَ، مِنْ سِبْطِ بَنِيَامِينَ، عِبْرَانِيٌّ مِنَ الْعِبْرَانِيِّينَ. مِنْ
جِهَةِ النَّامُوسِ فَرِيسِيٌّ. مِنْ جِهَةِ الْعَيْرَةِ مُضْطَهَدُ الْكَنِيسَةِ. مِنْ جِهَةِ الْبُرِّ الَّذِي فِي
النَّامُوسِ بِلَا لُومٍ. (فيلبي ٣: ٦-٤)

إن كان ثمة كائن بشري يستحق بركات الله لتقيده بالناموس، فهو بولس. ولكن حقيقة الأمر هو أنه لا يوجد كائن بشري خاطئ يستحق بركات الله للخلاص والحياة الأبدية. ولهذا رفض بولس الاعتماد على استحقاقه الأرضي، واتكل فقط على استحقاق المسيح الذي أعطاه الله له بواسطة إيمانه.

في الوقت عينه، أوضح بجلاء أيضاً أن مجرد الإقرار بالإيمان ليس كافياً لضمان خلاصنا. بل على العكس من ذلك، علينا أيضاً أن نثبت في الإيمان لكي نحصل على الحياة الأبدية. ويجب أن نتمسك بإيماننا، وأن نحيا حياة قداسة، وألا نكون قد برهنا أن إيماننا زائف. ذلك هو سبب تشديد بولس على الثبات، في فيلبي ٣: ١٢-١٦ مستخدماً هذه العبارات وهو يكتب عن الخلاص في المسيح:

لَيْسَ أَنِّي قَدْ نِلْتُ أَوْ صِرْتُ كَامِلاً، وَلَكِنِّي أَسْعَى لَعَلِّي أُدْرِكُ الَّذِي لِأَجْلِهِ أُدْرِكُنِي
أَيْضًا الْمَسِيحُ يَسُوعُ ... أَسْعَى نَحْوَ الْغَرَضِ لِأَجْلِ جَعَالَةِ دَعْوَةِ اللَّهِ الْعُلْيَا فِي

المسيح يسوع ... وأما ما قد أدركناه، فلنسلك بحسب ذلك القانون... (فيلبي ٣ :
١٢-١٦)

المجاهرة بالإيمان ليست كافية؛ يجب أن نبرهن على إيماننا بالثبات فيه. وإذا لم نثبت إلى النهاية، بتمسكنا بإيماننا بالمسيح لأجل خلاصنا، وبالبقاء مخلصين له بحياة القداسة التي نعيشها، فهذا برهان على أن إيماننا كان زائفاً.

التعليمات الأخيرة لبولس التي وجهها في فيلبي ٣ : ١٧-٤ : ٩، تتعلق بتحديات الثبات. هذه التعليمات هي أولاً تطبيق لوعظه بأن يتمثل به أهل فيلبي في الثبات.

وهو بمخاطبتهم عن التحديات التي تواجه الثبات، كان يحث أهل فيلبي على عدم السماح للمعلمين الكذبة، أو للخلافات داخل الكنيسة، أو للمصاعب الشخصية أن تجعلهم يترددون في إخلاصهم لله. وقد ابتدأ بالتركيز على الطرق التي من الممكن أن تتبعها التعاليم الزائفة في غزو الكنيسة وفي تهديد ثباتها. فلنستمع إلى فيلبي ٣ : ١٨-١٩، حيث كتب هذه الإدانة الشديدة:

لأن كثيرين ... أعداء صليب المسيح، الذين نهايتهم الهلاك، الذين إلههم بطنهم
ومجدهم في خزيمهم، الذين يفتكرون في الأرضيات. (فيلبي ٣ : ١٨-١٩)

من الواضح أن أعداء صليب المسيح هؤلاء لم يكونوا مؤمنين. ومع ذلك، كانوا في وضع يمكنهم من تهديد الكنيسة، ربما لقوة الإقناع التي لديهم، أو لأنهم كانوا ذوي نفوذ في الكنيسة. على أي حال، أصر بولس على أن ينبذ المؤمنون تعاليم أعداء المسيح الزائفة، وبأن يثبتوا في الإيمان المسيحي الصحيح الذي لا شائبة فيه. إن الرغبة في تجنب الضيقات والألم ليست سبباً كافياً لكي نفقد الإيمان بالإنجيل؛ وإن الحجج المقنعة ليست بديلاً عن قدرة الرب.

ولكن بولس حذرهم أيضاً بقوله إن المؤمنين الحقيقيين داخل الكنيسة يمكن أن يمثلوا تحدياً لثبات مؤمنين آخرين. وكمثال على هذا، أشار إلى مشكلة قائمة بين أفودية وسنتيخي. فلنستمع إلى كلماته في فيلبي ٤ : ١-٣:

إذا ... اثبتوا هكذا في الرب أيها الأحباء. أ أطلب إلى أفودية وأطلب إلى سنتيخي
أن تفتكروا فكراً واحداً في الرب ... يا شريكي المخلص، ساعد هاتين اللتين جاهدتنا
معي في الإنجيل ... (فيلبي ٤ : ١-٣)

بهذا الخلاف الحاصل لم يقف أفودية وسنتيخي بثبات في الحياة المقدسة، ويتأثيرهم هددوا أيضاً ثبات المؤمنين الآخرين في فيلبي.
وفي الختام، حثَّ بولس أهل فيلبي على عدم السماح للمصاعب الفردية بأن تُعيق ثباتهم، مشجعاً إياهم على تبني نظرة مفرحة، وعدم السماح للقلق أن يثبط عزيمتهم. وتعبّر هذه الكلمات في فيلبي ٤: ٤-٧، عن أفكاره بشكل جيد:

إفْرَحُوا فِي الرَّبِّ كُلِّ حِينٍ، وَأَقُولُ أَيْضًا: افْرَحُوا ... لَا تَهْتَمُّوا بِشَيْءٍ، بَلْ ... لِتَعْلَمَ
طَلِبَاتِكُمْ لَدَى اللَّهِ. وَسَلَامُ اللَّهِ ... يَحْفَظُ قُلُوبَكُمْ وَأَفْكَارَكُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ. (فيلبي
٤: ٤-٧)

كانت تعليمات بولس العملية هي وجوب أن يطلب المؤمنون من الله أن يخلصهم من قلقهم. في بعض الحالات، يمكن أن يفعل الله هذا بأن يزيل أسباب القلق، ولكن سوف يظهر أن بولس كان يتوقع في معظم الحالات أن يكون التغيير في القلب والفكر والمواقف والنظرة إلى الأمور.

تأكيد الثبات

أخيراً في ٤: ١٠-٢٠، ختم بولس النصّ الرئيسي للرسالة بوضع كلمات مؤكداً على ثبات أهل فيلبي في الإيمان والحياة المسيحية وخاصة من خلال خدمتهم المستمرة لبولس نفسه. في هذا الجزء، يشكر بولس أهل فيلبي لأجل المال الذي أرسلوه كي يخفف من معاناته في السجن. إن ملحوظة الشكر في الرسالة أكدت لهم أنه قد استلم النقود، وأنها قد ساعدت في تحسين أوضاعه. ولكن على ما يبدو، التأثير أو القيمة العظمى للنقود بالنسبة لبولس كانت عاطفية. فلنستمع إلى كلماته في فيلبي ٤: ١١-١٤:

فَإِنِّي قَدْ تَعَلَّمْتُ أَنْ أَكُونَ مُكْتَفِيًا بِمَا أَنَا فِيهِ ... فِي كُلِّ شَيْءٍ وَفِي جَمِيعِ الْأَشْيَاءِ
قَدْ تَدَرَّبْتُ أَنْ أَشْبَعَ وَأَنْ أَجُوعَ، وَأَنْ أَسْتَفْضِلَ وَأَنْ أَنْقُصَ ... غَيْرَ أَنَّكُمْ فَعَلْتُمْ حَسَنًا
إِذْ اشْتَرَكْتُمْ فِي ضِيقِي. (فيلبي ٤: ١١-١٤)

في أغلب الظن خففت النقود بعضاً من معاناة بولس، ولكن قناعته جاءت من الله. إن القيمة

الحقيقية التي لهذه الأموال كانت في ملامسة قلب بولس ومشاعره من خلال تضحيتهم في سبيله، هؤلاء المؤمنون المعدمون جعلوا بولس يعرف مدى محبتهم الخاصة له.

ما كان بمقدور أهل فيلبي أن يختاروا وقتاً أفضل ليبرهنوا فيه على محبتهم لبولس. في هذه المرحلة، كان سجن بولس يثقل عليه. كان متألماً ويائساً. لا بد أنه كان شيئاً جيداً تذكر بولس بأن أناساً كثيرين يحبونه، ويريدون أن يشاركوه معاناته وألمه.

وقد يتساءل أحدنا إن كان أهل فيلبي هم من ساعد بولس في التغلب على يأسه. هل كان اهتمامهم هو الذي أعاد إليه الأمل؟ هل هي محبتهم التي ألهمته الفرح في وسط ظروفه الرهيبة؟ هل كانت صداقتهم هي التي ذكرت بولس بأنه ليس وحيداً ولا منسياً؟ ثمة شيء واحد مؤكد: أحبّ بولس أهل فيلبي من صميم قلبه. ولذا، فإن عطيتهم ما كان يمكن إلا أن تثبت فيه الشجاعة.

التحية الختامية

أخيراً، تنتهي الرسالة بتحيات بولس الختامية في فيلبي ٤: ٢١-٢٣. يعتبر هذا الجزء نموذجياً إلى حدّ ما، مع أن جانباً واحداً من هذه التحيات يستحق تعليقاً خاصاً. تحديداً في فيلبي ٤: ٢٢، بعث بولس بتحيات القديسين الذين ينتمون لبيت قيصر. في العالم القديم، كان بيت قيصر يشتمل على أعضاء أسرته وخدمه، سواء كانوا يعيشون في القصر معه أم لا. ولم يكن الخدم يقتصرون على اليد العاملة فقط، بل كانوا يشتملون أيضاً على حراسه الشخصيين، وكذلك على العديد من الخدم المدنيين.

إن ذكر بولس لبيت قيصر دعا الكثير من مفسري الكتاب المقدس إلى أن يقرّوا أن بولس كتب رسالته من روما، حيث عاش قيصر وأهل بيته. ولكننا ينبغي ألا نتوصل إلى هذه النتيجة بسرعة. الحقيقة أن جميع خدم قيصر المدنيين، والحرس المتواجدين حول الإمبراطورية، كانوا يحسبون كجزء من بيت قيصر، بمن فيهم أولئك المرابطون في قيصرية بحرية.

أياً كان الحال، إن ذكر مؤمنين من حاشية قيصر يدلّ على أن سجن بولس لم يُعق خدمته للإنجيل بل على النقيض، فقد استمرّ بولس في كسب تلاميذ، حتى من بين سجّانيه.

بعد أن استكشفنا خلفية رسالة بولس إلى أهل فيلبي، وكذلك بنيتها ومحتواها، أصبح بمقدورنا الآن أن نتأمل ملياً التطبيق العصري لتعاليم بولس الموجودة في هذه الرسالة.

التطبيق المعاصر

غني عن القول إن الرسالة إلى أهل فيلبي يمكن أن تُطبق على حياتنا في الوقت الحاضر بطرق عديدة مختلفة. ولكننا ركّزنا في هذا الدرس على محاولة بولس لتشجيع الآخرين وهو يواجه ما يمكن أن يكون أيامه الأخيرة على الأرض. انطلاقاً من هذا المنظور، يتقدم موضوع واحد ليظهر في الصورة: حضّ بولس لأهل فيلبي على الثبات، لكي يسيروا قُدماً بإخلاص أمام الله. إننا ونحن نتأمل لما تعنيه رسالة فيلبي لنا اليوم، سوف نركّز انتباهنا على هذا الجانب من رسالته.

بينما نحن نفكر في المضمون الذي حملته رسالة بولس إلى أهل فيلبي، سوف نستكشف ثلاثة جوانب للثبات المسيحي. أولاً، سوف نتناول طبيعة الثبات. ثانياً، سنتعامل مع الإطار الفكري للثبات. وثالثاً، سوف نناقش خدمة الثبات في الكنيسة. دعونا نلتفت أولاً إلى طبيعة الثبات.

طبيعة الثبات

يمكن أن نُفهم تعاليم بولس عن الثبات في فيلبي بسهولة أكبر على أساس ثلاثة حقائق رئيسية: تعريف الثبات، ضرورة الثبات، وتأكيد الثبات. إذاً، دعونا نبدأ بالنظر إلى تعريف بولس للثبات.

تعريف

تصوّر بولس الثبات على أساس الفكرتين المتلازمتين للإيمان الحقيقي والحياة البارّة. من جهة، الثبات يعني الحفاظ على إيماننا بإنجيل المسيح، متكئين على استحقاقه وحده لأجل مثولنا في البرّ أمام الله. كتب بولس عن هذا الموضوع في فيلبي ١: ٢٧، حيث عبّر عن أمله من أجل أهل فيلبي بهذه الكلمات:

تَثْبُتُونَ فِي رُوحٍ وَاحِدٍ، مُجَاهِدِينَ مَعًا بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ لِإِيمَانِ الْإِنْجِيلِ. (فيلبي ١: ٢٧)

ينبغي علينا كمؤمنين، أن نبقي راسخين في التزامنا بالإنجيل، غير متخلّين عن معتقداتنا.

هذا هو ما نعينه عندما نتكلم عن الثبات في الإيمان.

يمكن وصف الإيمان الحقيقي بإنجيل المسيح بعدة طرق، ولكن لنستمع إلى مصدر مركزي واحد للإيمان المسيحي كما يصفه بولس في فيلبي ٣: ٨-٩:

كُلُّ الْأَشْيَاءِ، وَأَنَا أَحْسِبُهَا نُفَايَةً لِكَيْ أَرْبِحَ الْمَسِيحَ، وَأَوْجَدَ فِيهِ، وَلَيْسَ لِي بَرِّي
الَّذِي مِنَ النَّامُوسِ، بَلِ الَّذِي بِإِيمَانِ الْمَسِيحِ، الْبَرُّ الَّذِي مِنَ اللَّهِ بِالْإِيمَانِ. (فيلبي
٣: ٨-٩)

يشير بولس في هذه الفقرة إلى أن كل مراتبه البشرية وأعماله الصالحة كانت عديمة الفائدة في الحصول على البر والخلاص الحقيقيين. الشيء الوحيد الذي بإمكانه أن يكسبه الخلاص كان برّ المسيح، الذي حصل عليه بولس بواسطة الإيمان.

طالما دمننا مستمرين في الاتكال على استحقاق المسيح وحده لأجل برّنا، فنحن نثبت ونقف راسخين في إيماننا. هذا لا يعني أن الثبات لا يقبل أبداً الشكوك. إن معنى ذلك على الأصح، أن الثبات في الإيمان لا يفكر مطلقاً بإنكار حقيقة الإنجيل. فضلاً عن ذلك، إن امتلاكنا للإيمان المسيحي الصحيح لا يعني ألا يكون ثمة أخطاء في لاهوتنا. من المحتمل أن يكون هناك الكثير منها، ومع ذلك نظلّ على إيماننا بعقائد الإنجيل الأساسية. ولكن إذا توقفنا عن الإيمان بالحقيقة الأساسية بأننا نلنا الخلاص بالمسيح وبالمسيح وحده، حينئذ نكون قد فشلنا حقاً في أن نثبت. بالإضافة إلى تعريف الثبات على أنه الإيمان الحق، يتكلم بولس أيضاً عن الثبات بصفته الحياة البازّة، وكإصرار على القيام بأعمال صالحة وحميدة. على سبيل المثال، في فيلبي ٢: ١٢-١٣، يتكلم بولس على هذا النحو:

إِذَا يَا أَحِبَّائِي، كَمَا أَطَعْتُمْ كُلَّ حِينٍ ... تَمَّمُوا خَلَاصَكُمْ بِخَوْفٍ وَرِعْدَةٍ، لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ
الْعَامِلُ فِيكُمْ أَنْ تُرِيدُوا وَأَنْ تَعْمَلُوا مِنْ أَجْلِ الْمَسْرَةِ. (فيلبي ٢: ١٢-١٣)

تكلم بولس هنا عن الاستمرار في الأعمال الصالحة، والتصرف بطرق تتفق مع الخلاص. الثبات في الأعمال الصالحة لا يعني أن تكون حياتنا كاملة. لن نستطيع أن نبلغ الكمال مطلقاً في هذه الحياة، وفي بعض الأحيان تصادفنا عثرات خطيرة. نحن بالأحرى، نثبت في الأعمال الصالحة عندما نسعى بإخلاص جاهدين لإطاعة المسيح.

ضرورة الثبات

لم يكن ما أراده بولس من المؤمنين مجرد فهم معنى الثبات، لقد أراد أن نفهم ضرورة الثبات، في الإيمان وفي الحياة على السواء بُغية الحصول على الخلاص، بحيث يكون لدينا في واقع الأمر، الدافع للثبات. فلنستمع إلى ما يقوله بولس في فيلبي ٣: ٨-١١:

كُلُّ الْأَشْيَاءِ، وَأَنَا أَحْسِبُهَا نُفَايَةً لِكَيِّ أَرْبِحَ الْمَسِيحَ، وَأُوجَدَ فِيهِ، وَلَيْسَ لِي بِرِّي
الَّذِي مِنَ النَّامُوسِ، بَلِ الَّذِي بِإِيمَانِ الْمَسِيحِ، ... لِأَعْرِفَهُ، وَقُوَّةَ قِيَامَتِهِ، وَشَرِكَةَ
آلَمِهِ... (فيلبي ٣: ٨-١١)

بكل بساطة، علم بولس أننا إذا ما فشلنا في التمسك بالإيمان الحقيقي، فسوف لن نبقى في المسيح، أي أننا لن نقوم من الموت إلى حياة المجد الأبدي. بكلمات أخرى، إن الثبات في الإيمان ضروري لخلاصنا الأخير. وبالمثل، قدم لنا بولس في فيلبي ٢: ١٤-١٦، هذه التعليمات المتعلقة بحياة البر:

افْعَلُوا كُلَّ شَيْءٍ بِلَا دَمْدَمَةٍ وَلَا مُجَادَلَةٍ، لِكَي تَكُونُوا بِلَا لَوْمٍ، وَبُسْطَاءَ، أَوْلَادًا لِلَّهِ بِلَا
عَيْبٍ فِي وَسْطِ جِيلٍ مُعَوَّجٍ وَمَمْلُوءٍ، ... لِافْتِخَارِي فِي يَوْمِ الْمَسِيحِ، بِأَنِّي لَمْ أَسْعَ
بِاطِلًا وَلَا تَعَبْتُ بِاطِلًا. (فيلبي ٢: ١٤-١٦)

بتجنب الدمدة والمجادلة - وذلك بالحياة البارة - يستطيع أهل فيلبي أن يصبحوا بلا لوم وبلا عيب، بحيث يكون هذا سبباً لافتخار بولس بخدمته. ولكن إذا فشلوا في الثبات، فسيكون هذا برهاناً على أنهم ليسوا أبناء الله - أو على أنهم لم يتقوا حقاً بالمسيح - ولن ينالوا الخلاص في اليوم الأخير. وهذا الأمر صحيح بالنسبة لنا: إن لم نثبت في حياة البر، نبرهن بذلك على أننا غير مؤمنين، ولن ننال الخلاص.

بالنسبة لكثير منا، يمكن أن تبدو تعاليم بولس عن تعريف وفهم معنى ضرورة الثبات مهيبية، أو قاسية. ولكن عقيدة بولس لها أيضاً جانب ثالث مشجّع جداً، أي تأكيد الثبات. وعلى ضوء التأكيد، فإن تعاليم بولس عن الثبات لا تشكل تهديداً للمؤمنين، بل راحة لهم.

يقينية الثبات

أكد بولس لأهل فيلبي على أن كل مؤمن حقيقي سوف يثبت يقيناً، في الإيمان وفي الحياة البارة على السواء، بحيث يكون خلاصنا مضموناً. حقيقة أن كثيرين يدعون الإيمان ويفشلون في الواقع في الثبات. ولكن هؤلاء أناس لم يحصلوا مطلقاً على الإيمان الخلاصي في المقام الأول. أولئك الذين لديهم الإيمان الحقيقي، من ناحية أخرى، يمتلكون الروح القدس الذي يعمل فيهم ليضمن ثباتهم. فلنستمع إلى كلمات بولس في فيلبي ١ : ٦ :

وَإِنَّمَا بِهَذَا عَيْنِهِ أَنْ الَّذِي ابْتَدَأَ فِيكُمْ عَمَلًا صَالِحًا يُكْمَلُ إِلَى يَوْمِ يَسُوعَ الْمَسِيحِ.
(فيلبي ١ : ٦)

كان بولس متأكداً أنه إذا ابتدأ الله في خلاص أهل فيلبي، فسيُكْمَلُ أيضاً هذا الخلاص. ولن يسمح بأن يهلك واحد منهم، ولكنه سيجعل جميع المؤمنين الحقيقيين يثبتون إلى يوم يسوع المسيح. وينبغي أن نكون واثقين كما كان بولس واثقاً. إن كنا نؤمن حقاً، فلا مجال لأن نسقط من الإيمان أو من النعمة. أكد بولس هذه الفكرة في فيلبي ٢ : ١٢-١٣ حيث قدّم هذه الكلمات المشجعة:

تَمَّمُوا خَلَاصَكُمْ بِخَوْفٍ وَرِعْدَةٍ، لِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَامِلُ فِيكُمْ أَنْ تُرِيدُوا وَأَنْ تَعْمَلُوا مِنْ أَجْلِ الْمَسْرَةِ. (فيلبي ٢ : ١٢-١٣)

إن ما يجب أن نخشاه ليس رهبتنا من السقوط من النعمة في النهاية، بل الشعور الغامر بالروعة لدى إدراكنا أن الله كلي القدرة يعمل في كل واحد منا ليتأكد من أننا نفكر ونعمل ما يريده. فهو الذي يتحكم في قلوبنا وأفكارنا من أجل مقاصده الحسنة، التي تضمن ثباتنا، بحيث لا يكون ثمة مجال للفشل في بقائنا صامدين حتى النهاية.

الإطار الفكري للثبات

الآن وبعد أن استقصينا طبيعة الثبات، أصبح بإمكاننا مناقشة الإطار الفكري للثبات الذي ينبغي على المؤمنين أن يتبنوه. سوف نركز خلال مناقشتنا على ثلاثة جوانب من الإطار الفكري

الذي أكد عليه بولس في رسالته إلى أهل فيليبي: التواضع والتفاؤل والفرح. دعونا ننظر أولاً إلى فكرة بولس التي تقول بأن إطارنا الفكري يجب أن يكون مبنياً على التواضع.

التواضع

أتيحت لبولس الفرص كلها لكي يكون متعجباً، بصفته رسولاً معتمداً للرب يسوع المسيح. فقد أعد الله بولس للقيادة بطريقة خارقة للطبيعة؛ واختار بولس من بين الجميع ليحمل الإنجيل إلى الأمم؛ وقد أجرى كذلك العديد من المعجزات من خلاله. وكان بولس يُعظّم في الكنائس في كل أنحاء العالم كبطل.

ولهذا، حين كان يتألم في السجن، كان من الممكن أن تسوّل له نفسه بالتساؤل، "لماذا سمح الله بأن يحدث هذا لي من بين جميع الناس؟ لقد كنت مخلصاً له من جميع الوجوه، ومع ذلك يرفض أن يباركني! إنني أستحق أفضل من هذا!"

ولكن تحدّي كرم الله ومحبته هو عمل طائش وباطل وقد عرف بولس ذلك. في الحقيقة، كانت لديه كل الأسباب لكي يكون متواضعاً أمام الله. ويقبوله هذه الحقيقة، أعد نفسه لأن يكون مؤهلاً من قبل الله، ولأن يثبت خلال المشقات التي واجهها.

وفي هذا الصدد، احتذى بولس بالإطار الفكري ليسوع، الذي وضع نفسه لينال بركات الله، لنفسه ولنا. في الواقع، كان تضمين بولس رسالته "تسبيحة المسيح" الشهيرة دعماً لتعليماته عن التواضع. نجد هذه التسبيحة في فيليبي ٢: ٦-١١.

يرى بعض مفسري الكتاب المقدس أن هذه الآيات كانت ترنيمة معروفة في الكنيسة حتى قبل كتابة بولس لرسالته إلى أهل فيليبي. ويشك آخرون في أن بولس كتب هذه الآيات خصيصاً لهذه المناسبة. ولكن مهما كان مصدرها، فإن معنى هذه الآيات واضح: يسوع متواضع، وعلينا أن نحذو حذوه.

تصف هذه الفقرة المسيح خلال مراحل تاريخية ثلاث: حالته ما قبل التجسد، وإذلاله، وارتفاعه. تكلم بولس أولاً عن حالة المسيح قبل تجسده. في ذلك الوقت، كان المسيح موجوداً بصفته الله الأبن، يحيا باتحاد كامل مع الآب والروح القدس، مساوٍ لهما في القوة والمجد. وصف بولس حالة المسيح ما قبل تجسده في فيليبي ٢: ٦، حيث كتب هذه العبارات:

الَّذِي إِذْ كَانَ فِي صُورَةِ اللَّهِ، لَمْ يَحْسِبْ خُلُوسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلًا لِلَّهِ. (فيلبي ٢: ٦)

تخبرنا هذه الآيات أمرين عن المسيح على الأقل. أولاً، قبل صيرورته كائناً بشرياً كان المسيح ممجّداً. أو كما يقول بولس، كانت للمسيح "طبيعة" أو "صورة" الله. استخدم بولس الكلمة اليونانية "morphē"، والتي تشير بشكل عام إلى صورة الإنسان الخارجية. لم يعنِ بولس طبعاً أن المسيح يشبه الله في الصورة فحسب. بل عنى بالأحرى أن صورته الخارجية تشهد للحقيقة الأصلية أن المسيح كان فعلاً هو الله.

ثانياً، أشار بولس إلى أن المسيح كان متواضعاً. وحتى قبل أن يظهر اتضاعه، أثبت المسيح ذلك بقبوله بأن يتخذ طبيعة أو مظهراً آخر، أي أن يتجسد كإنسان. تحديداً، كتب بولس في فيليبي ٢: ٦ أن المسيح "لَمْ يَحْسِبْ خُلْسَةً أَنْ يَكُونَ مُعَادِلًا لِلَّهِ".

يستخدم بولس هنا كلمة "isos" للإشارة إلى "مساواة" أو "تشابه" المسيح بالله. وقد كان المعنى أن "مظهر" المسيح أو "مجده الخارجي" هو المجد نفسه الذي يظهره الله الآب، ولكن المسيح كان مستعداً للتخلي عن مجد جلوسه عن يمين الله لكي يرضي الآب ويشترى خلاصنا. بعد ذلك وصف بولس إذلال المسيح في مرحلة حياته الأرضية، مبتدئاً بتكوّنه في رحم مريم، وحتى موته على الصليب. فلنستمع إلى كلمات بولس حول إذلال المسيح في فيليبي ٢: ٧-٨:

لِكِنَّهُ أَخْلَى نَفْسَهُ، آخِذًا صُورَةَ عَبْدٍ، صَائِرًا فِي شِبْهِ النَّاسِ. وَإِذْ وُجِدَ فِي الْهَيْئَةِ
كَإِنْسَانٍ، وَضَعَ نَفْسَهُ وَأَطَاعَ حَتَّى الْمَوْتِ مَوْتِ الصَّلِيبِ. (فيلبي ٢: ٧-٨)

هذه الآيات توافق ما جاء في كلمات بولس عن مرحلة ما قبل تجسد المسيح، وتخبرنا أمرين، على الأقل، عن المسيح خلال مرحلة إذلاله. أولاً، كان إذلال المسيح غير مجيد. لأن ابن الله وضع جانباً مجده الإلهي لكي يتخذ طبيعة أو صورة الكائن البشري. مرة أخرى، استخدم بولس الكلمة اليونانية "morphē" لبيّن أن المسيح قد استبدل شكله الخارجي، بحيث لم يعد يظهر مجده الإلهي، بل يظهر الشكل الخارجي للكائن البشري.

وكما أن الشكل الإلهي للمسيح يدلّ على أنه كان إله كامل، فإن مظهره الانساني يدلّ على أنه كان إنساناً حقيقياً كاملاً. ولكن من المهم أن ندرك أنه بصيرورته إنساناً، فإن المسيح لم يتخلى عن أيّ من صفاته الإلهية. لا بل بالأحرى، أضاف بكل بساطة طبيعة إنسانية كاملة إلى طبيعته الإلهية الكاملة، بحيث يحق أن يُقال إنه إنسان كامل وإله كامل.

ثانياً، يؤكد فيليبي ٢: ٧-٨ على أن المسيح كان متواضعاً. تماماً كما قد كان مستعداً للتخلي عن شكله الممجّد خلال مرحلة ما قبل التجسد، فقد تخلى حقاً عن هذا الشكل خلال فترة الإذلال.

وفي الواقع، بلغ إذلاله حدّه الأقصى حتى أنه سمح لنفسه بأن يقتل بيد المخلوقات التي اتخذ صورتها.

أخيراً، وصف بولس المسيح خلال مرحلة ارتفاعه، والتي ابتدأت بقيامته من الموت وصعوده إلى السماء، وهو مستمر الآن في حكمه للخليقة. كتب بولس عن رفع منزلة المسيح في فيلبي ٢: ٩-١١، واصفاً إياه بهذه العبارات:

لِذَلِكَ رَفَعَهُ اللهُ أَيْضًا، وَأَعْطَاهُ اسْمًا فَوْقَ كُلِّ اسْمٍ لِكَيْ تَجْتَنُوا بِاسْمِ يَسُوعَ كُلَّ رُكْبَةٍ
مِمَّنْ فِي السَّمَاءِ وَمَنْ عَلَى الْأَرْضِ وَمَنْ تَحْتَ الْأَرْضِ، وَيَعْتَرِفَ كُلُّ لِسَانٍ أَنَّ يَسُوعَ
الْمَسِيحَ هُوَ رَبُّ لِمَجْدِ اللهِ الْآبِ. (فيلبي ٢: ٩-١١)

يذكر بولس مرة أخرى أمرين هامّين جداً بخصوص المسيح خلال هذه المرحلة. أولاً، استعادة المسيح لصورته أو شكله الممجّد، برفعه كحاكم للكون كله، وله تجنّب كل خليقة خضوعاً وعبادةً. ثانياً، يستمر المسيح في اتضاعه، حتى في هذه الحالة في سموّه وتمجيده وحكمه للعالم. ومع كل ذلك، فإن سلطانه على الخليقة لم يكن الهدف منه تمجيد نفسه، بل لتمجيد الله الآب.

قدّم بولس هذه الأفكار في فيلبي لأنه أراد أن يتبع المؤمنين مثال يسوع. بعد كل ذلك، إذاً قبل أبن الله أن يخضع لمثل هذه المذلة التي تحطّ من مقامه، فمن المؤكد أنه ينبغي على عبده أن يكونوا متواضعين كذلك. وإذا كان أتضاع المسيح قد ساعده في ثباته خلال الآمه وموته، إذاً، باستطاعة التواضع أن يساعدنا في الثبات أيضاً. هذه هي النقطة عينها التي تحدّث عنها بولس في فيلبي ٢: ٢-٤، حيث كتب هذه التوصيات:

فَتَمَمُّوا فَرَجِي حَتَّى تَفْتَكِرُوا فِكْرًا وَاحِدًا وَلَكُمْ مَحَبَّةٌ وَاحِدَةٌ بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ، مُفْتَكِرِينَ
شَيْئًا وَاحِدًا، لَا شَيْئًا يَنْحَرِبُ أَوْ يَعْجَبُ، بَلْ بِتَوَاضُعٍ، حَاسِبِينَ بَعْضُكُمْ الْبَعْضَ أَفْضَلَ
مِنْ أَنْفُسِهِمْ. لَا تَنْظُرُوا كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى مَا هُوَ لِنَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ وَاحِدٍ إِلَى مَا هُوَ
لِالْآخَرِينَ أَيْضًا. (فيلبي ٢: ٢-٤)

يساعدنا التواضع على الثبات في حياة البرّ وفي الإيمان. من جهة، يجعلنا قادرين على أن نفكر فِكْرًا واحدًا، وأن نكون متحدين، وأن نحب ونحترم الآخرين، وأن نخدمهم فيما يحتاجون إليه. ومن جهة أخرى، يساعدنا على أن نتذكّر أن الآب يستحقّ ثقتنا وإخلاصنا حتى عندما تكون ظروفنا

بأسة - حتى عندما نكون مضطهدين - وحتى عند استشهائنا.

التفاؤل

إلى جانب تشجيعه المؤمنين على التواضع كسبيل إلى الثبات، شدّد بولس على قيمة التفاؤل، الذي هو نظرة أمل إيجابية إلى الحياة. في العالم الحديث، ليس من غير المعتاد سماع الناس يتكلمون عن التفاؤل وكأنه مسعىً أحمق، لا شأن له بالعالم الحقيقي، بل يدعى ببساطة أن الأمور أفضل ممّا هي عليه. ولكن التفاؤل بولس لم يكن هكذا. كان تفاؤله واقعياً. لم يكن يتجاهل الأمور السيئة في الحياة - في الواقع، كان يشعر أنها تهدده.

ببساطة كان تفاؤل بولس بحدّ ذاته، قراراً واعياً بتركيز اهتمامه على تلك الأمور التي كانت حقاً جيدة، بدل التركيز على الأشياء السيئة. وقد تولّد هذا التفاؤل من إيمانه ببركات الله وسدّه احتياجاتنا في العالم الحاضر، ومن رجائه في الفداء والثواب اللذين سوف يمنحهما الله لنا في المستقبل. مثال على ذلك، خلال معاناته في السجن، وحين كان متضايقاً من المبشرين بالإنجيل المرائين، أختار التركيز على بركة التبشير بالمسيح، ولو كان لدى المبشرين دوافع شريرة. فلنستمع إلى ما يقوله في فيلبي ١: ١٦-١٨:

فَهَوْلَاءَ عَنِ تَحَرُّبٍ يُنَادُونَ بِالْمَسِيحِ لَا عَنِ إِخْلَاصٍ، ظَانِّينَ أَنَّهُمْ يُضَيِّفُونَ إِلَيَّ
وَتُفِي ضَيْقًا ... فَمَاذَا؟ غَيْرَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ وَجْهِ سَوَاءٌ كَانَ بَعْلَةً أَمْ بِحَقِّ يُنَادَى
بِالْمَسِيحِ، وَبِهَذَا أَنَا أَفْرَحُ. (فيلبي ١: ١٦-١٨)

كانت حالة بولس النفسية معقدة. من جهة، كان يتألم. ولكن من جهة أخرى، قام باتخاذ قرار واعٍ بالتركيز على الأمور الحسنة بدل التركيز على الأمور السيئة. وهذا الخيار ساعده على تحمل معاناة السجن وكذلك سوء المعاملة التي لاقاها على يديّ هؤلاء المبشرين. وكانت نصيحة بولس لكنيسة فيلبي ٤: ٦-٨، متلائمة مع موقفه هذا. لننأمل كلماته هنا:

لَا تَهْتَمُّوا بِشَيْءٍ، بَلْ فِي كُلِّ شَيْءٍ بِالصَّلَاةِ وَالِدُعَاءِ مَعَ الشُّكْرِ، لِتَعْلَمَ طِلْبَاتُكُمْ لَدَى
اللَّهِ. وَسَلَامَ اللَّهِ الَّذِي يَفُوقُ كُلَّ عَقْلٍ، يَحْفَظُ قُلُوبَكُمْ وَأَفْكَارَكُمْ فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ.
أَخِيرًا أَيُّهَا الْإِخْوَةُ كُلُّ مَا هُوَ حَقٌّ، كُلُّ مَا هُوَ جَلِيلٌ، كُلُّ مَا هُوَ عَادِلٌ، كُلُّ مَا هُوَ

طَاهِرٌ، كُلُّ مَا هُوَ مُسِرٌّ، كُلُّ مَا صِيئُهُ حَسَنٌ، إِنْ كَانَتْ فَضِيلَةٌ وَإِنْ كَانَ مَدْحٌ، فَعِي
هَذِهِ افْتَكِرُوا. (فيلبي ٤ : ٦-٨)

إن التفكير المتفائل، ومحاربة القلق وتثبيت العزيمة، هو سبيل إلى دعوة الله ليحفظ قلوبنا وأفكارنا. ولذلك، فهو السبيل أيضاً إلى الثبات.

الفرح

أخيراً، بالإضافة إلى التواضع والتفاؤل، علّم بولس أيضاً أن الحالة الفكرية للفرح هي عون كبير للثبات المسيحي. لأن بولس نفسه ركّز على إيجاد الفرح لكي يستطيع الثبات خلال ظروفه البائسة ويتصرفه على هذا النحو، شجّع المؤمنين في فيليبي على أن يحذوا حذوه كذلك. مثلاً في فيليبي ١ : ١٨-٢٠، يتكلم بولس عن فرحه على هذا النحو:

بَلْ سَأَفْرَحُ أَيْضًا. لِأَنِّي أَعْلَمُ أَنَّ هَذَا يُؤْوِلُ لِي إِلَى خَلَاصٍ بِطَلْبَتِكُمْ وَمُؤَاوَزَةٍ رُوحِ
يَسُوعَ الْمَسِيحِ، حَسَبَ انْتِظَارِي وَرَجَائِي ... كَذَلِكَ الْآنَ، يَتَعَزَّمُ الْمَسِيحُ فِي جَسَدِي،
سَوَاءً كَانَ بِحَيَاةٍ أَمْ بِمَوْتٍ. (فيلبي ١ : ١٨-٢٠)

خاف بولس خوفاً مشروعاً من احتمال إنزال عقوبة الموت عليه. ومع ذلك، بدل أن يركّز على النواحي السلبية لموته، ركّز على المردود الايجابي لموته؛ لقد كان متفائلاً. ونتيجة لهذا، كان قادراً على أن يفرح.

لنلاحظ أن فرح بولس في هذه الحالة لم يكن إنكاراً ساذجاً للألم والمعاناة، أو حتى شعوراً طاغياً بالسعادة. على العكس من ذلك، وكما كنا قد ذكرنا، كان هناك الكثير من الحزن والألم ممتزجان في مشاعره كذلك. ولكنه رغماً عن ضيقه، كان بولس قادراً على النظر إلى الأشياء الحسنة في الحياة، وكان قادراً على أن يفرح بها. كان بإمكانه التفكير بتكريم المسيح من خلال موت شجاع وأن يشعر ذلك بالرضا وحتى بالسرور - بتعظيم المسيح. وهذا الرضا والسرور كوّن الفرحة لديه. لم يكن بولس يشعر بمجرد الفرحة، بل كان يشعر بالفرحة الحقيقي. وهذا الفرحة أمده بالرغبة في أن يحدث الخطى نحو الأمام، وأن يعطي غايةً لألمه. شجّع بولس أيضاً أصدقاءه في فيليبي على تبني موقف مماثل، لكي يعينهم فرحهم كذلك على الثبات. فلنستمع إلى نصيحته إليهم في فيليبي ٤ : ٤-٦:

أَفْرَحُوا فِي الرَّبِّ كُلَّ حِينٍ، وَأَقُولُ أَيْضًا: أَفْرَحُوا ... الرَّبُّ قَرِيبٌ. لَا تَهْتَمُّوا بِشَيْءٍ
... (فيلبي ٤: ٤-٦)

شجع بولس أهل فيليبي على الفرح لأن الرب كان قريباً، سواء كعون لهم وقت الحاجة، أو كملك سوف يجيء ليجلب ملك السلام إلى الأرض كلها. وفي كلتا الحالتين، فإن الفرح سيكون دافعاً لأهل فيليبي يمكنهم من التغلب على القلق، وبسبب ذلك يعدّهم لكي يثبتوا حتى مجيء الرب. بتمثنا بالإطار الفكري لبولس، وذلك بتركيزنا على التواضع والتفاؤل والفرح، نستطيع أن نتغلب على القلق واليأس. لا مفرّ من مواجهة الصعاب القادمة، ولا مفرّ من تعرضنا للألم – وأحياناً بقسوة كبيرة. ولذا، حين يحدث هذا، نكون بحاجة إلى أن نتذكر مثال بولس ونصيحته. نحتاج إلى أن نلطف معاناتنا بروح متواضعة، وأن نطلّ على رجائنا وذلك بالتفكير بالأمور الجيدة العديدة التي لدينا في هذه الحياة والحياة الآتية. ونحتاج إلى أن نتغلب على مصاعب الظروف التي نمرّ بها، باتخاذنا قراراً واعياً بأن نفرح بكل الأشياء في حياتنا التي ما تزال تستحق الفرح. على هذا النحو، بإمكاننا بعون الله أن نتشدد، لكي نستطيع الثبات.

خدمة الثبات

الآن بعد أن استكشفتنا طبيعة الثبات وإطاره الفكري، أصبحنا على استعداد للالتفات إلى الموضوع الثالث الذي يشغلنا: خدمة الثبات في الكنيسة، التي نعبر عنها من خلال تصرفاتنا تجاه بعضنا البعض.

أكد بولس أن خدمة أهل فيليبي له قد ساعدته على الثبات في عدة مراحل من خدمته، بما فيها مرحلة سجنه الحالي. وقد دعموه مالياً وعاطفياً في أوقاتٍ عديدة مختلفة. وحتى أنهم قد أرسلوا أيفرودتس لخدمته في السجن.

نستطيع أن نوجز خدمتهم لبولس على أساس الدعم المادي، والتشجيع، والحضور الجسدي. وبكلّ واحدة من هذه الطرق، دعم أهل فيليبي حالة بولس النفسية ومدّوه بالقوة لثبات أعظم. لنستمع مثلاً إلى كلمات بولس في فيليبي ٤: ١٣-١٤:

أَسْتَطِيعُ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْمَسِيحِ الَّذِي يُقَوِّينِي. غير أنكم فعلتم حسناً إذ اشركتم في
ضيقتي. (فيلبي ٤: ١٣-١٤)

هذه الآيات البسيطة تمثل بشكل ما صميم خدمة أهل فيلبي لبولس، وصميم مشاعره تجاههم. قبل قدوم ابفروتس حاملاً هدية أهل فيلبي لبولس، كان الرسول يلتمس القوة من الرب لكي تساعده على الثبات. ولكن لم يكن لديه الكثير من دعم الآخرين المعنوي، ونتيجة لهذا فقد اضمحل تقاؤه وفرحه شيئاً فشيئاً. كان لا يزال يثابر في إيمانه، لكن بجهد كبير.

ولكن هدية أهل فيلبي أمدته بالدعم المادي الذي خفف إلى حد ما من معاناته، بحيث أصبح ثباته أسهل بعض الشيء. وكذلك أمدّه اهتمامهم به الذي عبّروا عنه من خلال الهدية وإرسال أبفروتس، زود بالشجاعة، وساعده لكي يستعيد تقاؤه وفرحه. وبالطبع فإن حضور أبفروتس بشخصه لم يلبي حاجات بولس الأرضية فحسب، بل وفر له صحبة وصدقةً تساعده أكثر على الثبات.

ولهذا، فإنه كان صادراً من أعماق قلب بولس ما قاله لأهل فيلبي "كان حسناً منكم بان تتشاركوا مع مشاكلي." لقد قدر بولس حقاً الخدمة التي قدّموها له، وأن اعتبرهم أصدقاء له مدعاة لراحته وفرحه الكبيرين، حيث شجّعه هذا وساعده على الثبات، وذلك بالمحافظة على قوة إيمانه، والعيش بطرقٍ تكرم المسيح.

لقد قصد بولس من خدمته مساعدة أهل فيلبي على الثبات خلال تجاربهم. وكما نقرأ في فيلبي ١: ٣-٤، فقد صلّى من أجلهم. وكذلك كتب رسالته إليهم ليعلّمهم كيفية الثبات، وعلاوة على ذلك، أرسل أبفروتس لخدمهم، كقائدٍ في الكنيسة على الأرجح.

نستطيع أن نتعلم الكثير في الكنيسة العصرية من طريقة خدمة أهل فيلبي لبولس، وذلك بتوفيرهم الدعم المادي له. هناك العديد من المسيحيين في كل أنحاء العالم لديهم احتياجات مادية ملحة. البعض منهم فقير إلى درجة يصبح معها تأمين الطعام والملبس بالنسبة له بمثابة تحدٍّ دائم. والبعض الآخر يعاني من القهر من قبل أناسٍ أشرارٍ في هذا العالم. وحتى يباع البعض ليُسْتَعْبَد وتساء معاملته إلى أقصى درجة. وهناك بالطبع بعض الاحتياجات المادية الملموسة الأقل إثارة للنفس، والتي يستشعرها المسيحيون في كل جزء من أجزاء العالم. إن إحدى الطرق التي نستطيع أن نخدم فيها هؤلاء المؤمنين، وأن نساعدهم على الثبات، هي بتلبية احتياجاتهم المادية.

بإمكاننا أيضاً أن نتعلّم الكثير من طريقة خدمة أهل فيلبي لبولس، من خلال محبتهم وتشجيعهم له. فهم لم يكتفوا بمجرد إرسال النقود إليه، بل أرسلوا إليه أيضاً محبتهم. وقد قالوا لبولس من خلال إرسالهم ابفروتس إليه، أنهم يفكرون فيه، وبأنه كان في قلوبهم كما كانوا هم في قلبه.

المؤمنون المعاصرون بحاجة أيضاً للتشجيع لكي يثبتوا. بإمكاننا أن نقدّم لهم عبارات

التشجيع في الكنيسة، بواسطة الهاتف، أو من خلال إرسال رسالة أو رسول، أو بطرق أخرى عديدة. ولكن ما نغنيه هنا، هو أننا يجب أن نأخذ زمام المبادرة لكي نجعل الناس يعرفون أننا نحبههم وأننا لا نساهم.

والأكثر من هذا، نستطيع قضاء وقت مع الناس شخصياً، بمرافقتهم وتواجدنا معهم، وبمساعدهم في احتياجاتهم الجسدية، تماماً كما فعل أهل فيلبي حين أرسلوا ابفروتس إلى بولس. هناك العديد من الأشخاص يعانون من الوحدة. حتى في الكنيسة، الكثيرون يحتاجون إلى صديق، وآخرون كُثر يحتاجون إلى المساعدة في أمور بسيطة مثل التسوق وأعمال التنظيف، أو العناية بهم وبأسرهم. إن الحضور الجسدي مع المؤمنين هو طريقة أخرى جيدة لمساعدتهم على الثبات. وبإمكاننا أيضاً أن نتعلم الكثير من طرق خدمة بولس لأهل فيلبي. نستطيع أن نعلمهم كيف يثبتون من خلال العقيدة الصحيحة والنصيحة العملية. إذا كنّا في مركز السلطة في الكنيسة، فإننا نستطيع أن نقود الكنيسة بطرقٍ مسئولة وباعةة على الأمل، والتي نقول لها بالكلمة والمثال إن الثبات هو عمل مقدس وممكن. وليس مهماً من نكون أو أين نكون، فإننا نستطيع دائماً أن نصلي لكي يهب الله المؤمنين الآخرين القوة والقدرة على الثبات استجابةً لدعائنا.

الخاتمة

قمنا في هذا الدرس باستكشاف رسالة بولس القانونية والمعتمدة إلى أهل فيلبي، بما في ذلك الخلفية التي تشكّل السياق التاريخي والاجتماعي للرسالة، وبنية ومحتوى الرسالة نفسها، وأخيراً، التطبيق العصري لهذه الرسالة في حياة الكنيسة المسيحية. تتضمن رسالة بولس إلى أهل فيلبي عدّة حقائق غنيّة ورائعة، تعلمنا كيف نكون راسخين في الإيمان، وكيف نعيش حياة البرّ أمام إلهنا القدّوس، حتى خلال أوقات المحن والشدائد. عندما نخضع لتعاليم بولس، سوف ندرك مدى أهمية الثبات، وسوف يدفعنا هذا إلى تكريس ذواتنا لهذه المهمة الرائعة. والأهم من ذلك كلّهُ، حين ننجح في ثباتنا، باتّباعنا نصيحة بولس، وبمساعدهتنا الآخرين على الثبات كذلك، نجلب المجد والكرامة لربنا المُعظّم يسوع المسيح.